AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00969 7123

عبا

V

عباس محمود العقاد

al-'Aqqād, 'Abbās Maḥmūd
Abū Nuwās
PJ
7701.6
N8
Z532
c.1
١٧/٥٦
١
٥٧

أبو نواس

الحسن بن هانئ

دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي

مطبعة الرسالة
٨١ شارع السلطان حسين - عابدين

OCLC
37216958

B 12021015
13324391

THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN CAIRO
LIBRARY

أبو النواس

اشتهر فى الأدب العربى عشرات من الشعراء والأدباء ، يعرفهم قراء الأدب ورواته ، ولا تصل أسماؤهم — فضلا عن أخبارهم — إلى الأميين وأشباه الأميين من جهلاء العامة ، ما عدا شاعراً واحداً اشتهر من بين هؤلاء الشعراء والأدباء فى بابه فسمع به الأميون وأشباه الأميين ، واتخذوا من اسمه علماً على كل من يشبهه فى صورته عندهم ، وصحفوا ذلك الإسم تصحيفاً يدل على مصادره الأمية ، فعرفوه باسم « أبى النوّاس » بتشديد الواو وزيادة الألف واللام للتعريف على الدوام .

ولم يكن شذوذ هذا الشاعر عن هذه القاعدة لسهولة شعره ، فإن الأميين الذين يتناقلون أخباره ونوادره لاينقلون بيتاً واحداً من شعره ولا يروونه مصحّفاً أو بغير تصحيف ، وإنما يعرفون الشاعر «شخصية» ذات أخبار ولا يعرفونه قائلا ينظم الأشعار .

ولم تكن هذه الشهرة أيضاً لقرب عهده وقصر الزمن بينه وبين رواته المتأخرين ، فإن النواسى عاش فى القرن الثانى للهجرة ، وهؤلاء الأميون الذين يتناقلون أخباره المزعومة قد يجهلون أسماء الشعراء والأدباء فى عصرهم أو هم يجهلون على التحقيق أسماء الشعراء والأدباء بعد القرن الثانى للهجرة بلا استثناء ، ما عدا هذا الاستثناء .

ولكنّ هذا الاستثناء لم يكن على أية حال مصادفة لغير سبب ، كما سنرى فى موضع البيان عن أسباب هذه الشهرة عند نشأتها الأولى ، ومتى وجدت الشهرة فهى قابلة بعد ذلك للأضافة والزيادة ، ولو من غير القبيل الذى نشأت من أجله فى مرحلتها الأولى .

وإذا كان هذا شأن الأميين فى التحدث بأخبار الشاعر المجدود فلا عجب أن يتحدث به أشباه الأميين وهم أقرب إلى الأدب المقروء فى الكتب والقدرة على فهم القليل منه ، إن فاتهم فهم أكثره وأصحه .

ونعنى بأشباه الأميين أولئك الذين يقرأون ولا يقدرون على تصحيح نسبة الكلام واستقصاء وجوه التصحيح . فإذا سمعوا كلاما لشاعر مشهور منسوباً إلى شاعر مشهور غيره ، جاز عندهم أن يكون لهذا أو لذاك ، وإن كان الفارق بينهما واضحاً لنقاد الأدب ورواته المثبتين .

هؤلاء القراء أشباه الأميين يعرفون النواسى كإخوانهم الأميين ، أى يعرفونه لأنه شخصية ذات أخبار ، وقلما يعنيهم منه ذلك الشعر الذى ينسبونه إليه سواء صحت نسبته إليه أو إلى غيره ، أو كان مختلقاً ملفقاً لا تصح نسبته إلى أحد من الشعراء المشهورين .

والغالب على هذه الشخصية أنها شخصية النديم اللاهى — « الحاذق » ... ونكاد نكتبها « الحدق » بالدال وعلى غير صيغة اسم الفاعل ،

لأن « الحداقة » كما يفهمها العامة هي الصفات التي تغلب على « النواسي » في روايات أشباه الأميين . ومنها سرعة الجواب والفهم بالأشارة ، أو الفهم الذي يوشك أن يكون اطلاعاً على الغيب ، مع اللباقة في اللعب بالكلام أو اللعب بالأفهام على حسب المقام ، ولاسيما مقام اللهو واللغو ونبذ الحياء والملام .

وليس أشهر من الأدب المنسوب إلى أبي نواس في الكتب التي تروج بين أشباه الأميين ، ومنها ألف ليلة وليلة وإعلام الناس فيما جرى للبرامكة مع بني العباس ، وقليله يغني عن الكثير".

« قيل أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة فقام يتمشى في قصره بين المقاصير فرأى جارية من جواريه نائمة فأعجبته فداس على رجلها ، فانتبهت فرأته ، فاستحيت منه وقالت : يا أمين الله ما هذا الخبر ؟

فأجابها يقول :

قلت ضيف طارق في أرضكم ... هل « تضيفوه » إلى وقت السحر

فأجابت بسرور سيدي ... أخدم الضيف بسمعي والبصر

فبات عندها إلى الصباح ، فلما كان الصباح سأل : من بالباب من الشعراء ؟ قيل له أبو نواس ، فأمر به فدخل عليه ، فقال : هات ماعندك على وزن يا أمين الله ما هذا الخبر ... فأنشد يقول :

طال ليلي وتولاني السهر ... فتفكرت فأحسنت الفكر

إلى أن يقول :

فإذا وجه جميــل مشرق زانه الرحمن يزرى بالقمر
فلمست الرجل منها موطئاً فدنت منى ومدت بالبصر
وأشارت لى بقول مفصح يا أمين الله ما هــذا الخبر؟
قلت ضيف طارق في أرضكم هل تضيفوه إلى وقت السـحر

إلى آخر البيتين .

فتعجب أمير المؤمنين وأمر له بصلة .

« وذكر الخطيب فى بعض مصنفاته أن الرشيد دخل يوما وقت الظهر إلى مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منها ، فوجدها تغتسل فلما رأته تجللت بشعرها حتى لم ير من جسـدها شيئاً ، فأعجبه منها ذلك الفعل واستحسنه ، ثم عاد إلى مجلسه وقال : من بالباب من الشـعراء ؟ قالوا : بشار وأبو نواس . فأمر بهما فحضرا وقال : ليقل كل منكما أبياتاً توافق ما فى نفسى ، فأنشأ بشار يقول :

تحببتـكم والقلب صار إليـكم بنفسى ذاك المنزل المتحبَّب

إلى أن يقول :

وقالوا تجنبنـا ولا قرب بيننا وكيف وأنتم حاجتى أتجنب
على أنهم أحلى من الشهد عندنا وأعذب من ماء الحياة وأطيب

فقال الخليفـــة أحسنت ، ولـكن ما أصبت ما فى نفسى ، فقل أنت يا أبا نواس . فجعل يقول :

نضت عنها القميص لصب ماء ... فورّد خدها فرط الحياء
وقابلت الهـواء وقد تعرّت ... بمعتدل أرق من الهواء
ومدت راحة كالماء منها ... إلى ماء معـــدٌّ فى إناء
فلما أن قضت وطراً وهمت ... على عجل لتـأخذ بالرداء
رأت شخص الرقيب على اقتراب ... فأسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليـــل ... فظل الماء يجرى فوق ماء
فسبحان الإله وقد براها ... كأحسن ما تـكون من النساء

فقال الرشـيد : سيفاً ونطعاً يا غلام ! قال أبو نواس : ولم يا أمـــير المؤمنين ؟ قال : أمعنا كنت ؟ قال : لا والله . ولـكن شىء خطر ببالى ... فأمر له بأربعة آلاف درهم ! .

وأمثال هذه الحـكايات كثير ، حدُّ «الحذاقة» فيها ـ أو «الحداقة» ـ هو حدها عند أشباه الأميين ... وهو شرطهم فى أرباب الفن إلى هذه الأيام .

* * *

وغنىٌ عن القول أن أخبار النواسى ليست مقصورة على الأميين وأشباه

الأميين ، ولكن اهتمام الأميين وأشباه الأميين بها هو وجه الغرابة فى هذا الباب من الأدب ، وأما العارفون بأدب الفصحى فلا وجه للغرابة فى اهتمامهم به وبأمثاله من موضوعات الآداب والفنون .

على أن الأمر فى هذه الناحية لا يخلو من غرابته التى تخص أخبار أبى نواس بخاصة لم يشاركه فيها أعلام الشعر والثقافة الفنية ، فإن رواة الأدب الصحيح لا يهتمون بأبى نواس وأنداده من الأعلام على نحو واحد . بل يلوح عليهم أنهم يودون لو يشركونه بسهم فى سيرة كل أديب ، ويحبون إذا نسب الخبر إليه أو إلى غيره أن يؤثروه به لو استطاعوا وأن يجعلوه من مروياته ومأثوراته دون المرويات والمأثورات عن سواه .

فصاحب العقد الفريد — ابن عبد ربه — من أعلم الرواة بأخبار الشعراء ... ولكنه يروى عن أبى نواس بعض الأخبار التى نقلناها فيما تقدم عن الأميين وأشباه الأميين ، ويضيف إليه أخباراً مشهورة عن ذى الرمة وصاحبته مية ، ونعنى بها تلك الأخبار التى تدور حول البيتين المنسوبين إليه وهما :

على وجه مى مسحة من ملاحة ... وتحت الثياب العرّ لو كان بادياً

ألم تر أن الماء يخبث طعمه ... ولو كان لون الماء فى العين صافيا

وقد سئل ذو الرمة عنهما فأنكرهما وقال : « وكيف أقول هذا وقد قطعت دهرى وأفنيت شبابى أشبب بها ! »

فيأتى صاحب العقد الفريد ولا يبالى كذب الرواية من أصلها ويحتفظ بها ليسندها إلى أبى نواس بلسان أبى بكر الوراق ، وهذا مقال من المقامات الفنيـة التى يؤلفها خاصـة الأدباء تأليفاً ليذكروا فيها ملحة أو طرفة عن ذلك الشاعر المجدود .

روى عن أبى بكر الوراق عن الحسن بن هانىء أنه قال : حججت مع الفضل بن الربيع حتى إذا كنا ببلاد فزارة ، وذلك إبان الربيع ، نزلنا منزلا بإزاء ماء لبنى عميم ذا روض أريض ونبت غريض ، تخضـع لبهجته الزرابى المبثوثة والنمارق المصـفوفة ، فقرت بنضرتها العيون وارتاحت إلى حسنها القلوب وانفرجت لبهائها الصدور ، فلم نلبث أن أقبلت السماء فانشق غمامها وتدانى من الأرض ركامها ، حتى إذا كانت كما قال أوس بن حجر حيث يقول :

دانٍ مُسفٌّ فويق الأرض هَيـدبُه

يكاد يدفعـه من قام بالراح

همت برذاذ ثم بطش ثم بوابل ، ثم أقلعت وغادرت الغـدران مترعة تتدفق ، والقيعان تتألق ؛ رياض مونقة ونوافح من ريحها عبقة ، فسرحت طرفى منها فى أحسن منظر ، ونشقت من رباها أطيب من المسك الأذفر ، فلما انتهينا إلى أوائلها إذا نحن بخباء على بابه جارية مشرقة ، ترنو بطرف مريض الجفون ، وسنان النظر ، أشعرت حمالیقه فترة وملئت سحراً ،

فقلت لزميلى : استنطقها .. قال : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قلت استسقها ! فاستسقاها ، فقالت : نعم ونعّما عين ، وإن نزلتم فعلى الرحب والسعة ، ثم مضت تتهادى كأنها خوط بان أو قضيب خيزران ، فراعنى ما رأيت منها ، ثم أتت بماء فشربت منه وصببت باقيه على يدى ، ثم قلت : وصاحبى أيضاً عطشان ! . . فأخذت الإناء فذهبت فقلت لصاحبى : من الذى يقول ؟

إذا بارك الله فى ملبس فلا بارك الله فى البرقع
يريك عيون الدمى غرة ويكشف عن منظر أشنع

... وسمعت كلامى فأتت وقد نزعت البرقع ولبست خماراً أسود وهى تقول :

ألا حى ربعىْ معشر قد أراهما أقاما فما أن يعرفا مبتغاهما
هما استسقيا ماء على غير ظمأة ليستمتعا باللحظ ممن سقاهما

فشبهت كلامها بعقد در وهى فانتثر ، بنغمة عذبة رخيمة ، لو خوطب بها صم الصلاب لانبجست ، مع وجه يظلم فى نوره ضياء العقول ، وتتلف من روعته موج النفوس ، وتخف فى محاسنه رزانة الحليم ويحار فى بهائه طرف البصير .

فدقّت وجلّت واسبكرّت وأكملت
فلو جن إنسان من الحسن جُنت

فلم أتمالك أن خررت ساجداً ، فأطلت من غير تسبيح ، فقالت : ارفع رأسك غير مأجور ! لا تذم بعدها برقعاً فلربما انكشف عما يصرف السكرى ويحل القوى ويطيل الجوى ، من غير بلوغ إرادة ولا درك طلبة ولا قضاء وطر ، ليس إلا للحين المجلوب والقدر المكتوب والأمل المكذوب . فبقيت والله معقول اللسان عن الجواب حيران لا أهتدى لطريق ، فالتفت إلى صاحبي وقال : ما هذا الجهد بوجه برقت لك منه بارقة لا تدرى ما تحته ؟ أما سمعت قول ذى الرمة :

على وجه مى مسحة من ملاحة
وتحت الثياب العرُّ لو كان بادياً

فقالت : أما ماذهبت اليه فلا أبالك . وانى لأنا بقول الشاعر .

منعمة حوراء يجرى وشاحها على كشح مرتج الروادف أهضم
لها أثر صاف وعين مريضة واحسن ابهام واحسن معصم
خزاعية الاطراف سعدية الحشا فزارية العينين طائية الفم

أشبه من قولك الآخر .. ثم رفعت ثيابها حتى بلغت بها نحرها وجاوزت منكبيها ، فاذا قضيب فضه قد أشرب ماء الذهب . ثم قالت . أعراترى لا أبالك ؟ قلت . لا والله . ولكن سبب القدر المتاح ومقربى من الموت الذباح ، يضيق على الضريح ويتركنى جسدا بغير روح ، فخرجت عجوز من الخباء ، فقالت له امض لشأنك ، فان قتيلها مطلول لا يودى

وأسيرها مكبول لا يفدى . فقالت لها . دعيه . فان له مثل قول غيلان ذى الرمة

وان لم يكن إلا تعلل ساعة قليلا ، فانى نافع لى قليلها

قولت العجوز وهى تقول .

وما نلت منها غير انك « واصل » بعينيك عينيها فهل ذاك نافع ؟

فنحن كذلك حتى ضرب الطبل للرحيل ، فانصرفت بكم قائل وكرب خابل وانا اقول .

واحسرتا مما يكن فؤادى أزف الرحيل بعبرتى وبعادى

فلما قضينا حجنا وانصرفنا راجعين مررنا بذلك المنزل وقد تضاعف حسنه ونمت بهجته ، فقلت لصاحبى . امض بنا إلى صاحبتنا ، فلما أشرفنا على الخيام وسعدنا ربوة ونزلنا وهدة إذا هى تتهادى بين خمس ما تصلح أن تكون خادما لأدناهن ، وهن يجنين من نور ذلك الزهر ، فلما رأيننا وقفن وقلنا : السلام عليكن . فقالت من بينهن : وعليك السلام ، ألست صاحبى قلت : بلى ! قلن . وتعرفينه ؟ قالت . نعم ، وقصت عليهن القصة ما خرمت حرفا ... قلن . ويحك ! أما زودته شيئا يتعلل به ؟ قالت ! بل زودته لحداً ضامراً وموتاً حاضراً . فانبرت لها أنضرهن خداً وأرشقهن قداً ؛ وأسحرهن طرفا وأبرعهن شكلا ، فقالت . والله ما أحسنت بدءاً ولا أجملت عوداً ولقد أسأت فى الرد ولم تكافئيه على الود ، فما عليك لو أسعفته بطلبته وأنصفته فى مودته ؟ وان المكان لخال ، وان معك من لا ينم عليك . .

حتى عاد من مطافه ممتلىء اليدين بالمال والجوهر ، ورآه الوزير جعفر البرمكى وهو بهذه الحالة فسأله : فيم كان عقابه ولأى شىء يحمل بردعة الحمار على ظهره ؟ فأجابه فى غير مهل : مامن شىء صنعت إلا أننى مدحت أمير المؤمنين فخلع على خلعة من خاصة ثيابه . . ونقلوا إلى الخليفة ماقال فضحك وعفا عنه وأمر له بهدية وخلعة سنية .

وهذه بعض نوادره التى جمعها المؤلف من افريقية الشمالية : قيل أن الشاعر كان يمشى فى جنازة فسأله بعضهم : أيهما أكرم فى تشييع الميت ؟ أن تمشى أمام نعشه أو تتبعه ؟

قال أبو نواس

لا تكن داخل النعش ، وسر حيث طاب لك السير

وأمر الخليفة ذات يوم بجلده مائة جلدة لأنهم وجدوا معه قارورة خمر فارغة يذهب بها ليملأها .

فسأل ابو نواس ، وعلى م الجلد يا أمير المؤمنين ؟

قال الخليفة : على الخمر التى ستملأ بها القارورة .

قال : إذن فاحكم على بالموت . لأننى أحمل لساناً قد يكفر بالله .

ورأى أبو نواس يوما سكران يتمايل فى الطريق ؛ فعجب الناظرون وسألوه : ألم تنظر من قبل إلى سكران ؟

قال : ومن أين لى أن أرى السكارى وأنا أول من يسكر وآخر من يفيق .

* * *

أما النوادر الاسطورية فقد جمعها المؤلف من مصادر لا يخطر على بال الكثيرين أنها سمعت باسم أبى نواس ؛ ومنها القبائل التى تسكن سواحل افريقية الجنوبية مما يلى زنجبار وتتكلم اللغة السواحلية» وهى مزيج من الزنجية والعربية والهندية والفارسية ؛ وبعض حكاياتها منقول من أقوام افريقية الاصلاء الذين تدور حكاياتهم على السحرة والكهان والعفاريت .

ويقول المؤلف فى تقديم هذا القسم فى كتابه إن شهرة أبى نواس وصلت إلى هناك مشافهة « وإنه يعرف بين السواحليين من أهل زنجبار باسم كيبو نواسى وبنواسى وبانواسى وأبا نواسى . . ومن تصوراتهم له أنهم يلبسونه شخصية الأرنب الذى نعرفه نحن فى ألعاب خيال الظل لأنهم يمثلونه سريع الفطنة حاضر الجواب ؛ ويلبسونه شخصية أخرى هى شخصية خيال الظل فى زنجبار ولعله أصل صاحبنا الأرنب . واسم هذه الشخصية فى اللغة السواحلية بواليم كرجوش ، وهى كلمة تمت إلى الأرنب لأنها بالفارسية شرجوش وتعنى الأرنب

« ومقطع كى الذى يقدمون به اسم كيبو نواسى تصغير لكلمة الشاعر فى اللغة السواحلية حيث يتخيلونه ضئيل الجسم عظيم الفطنة ، ويقال أن اسم

النواسى قد أصبح علما على كل من كان عنده جواب حاضر لسكل سؤال ومخرج قريب من كل ورطة ، أو علم على اللبيب الذى نقول نحن أنه يضحك كثيراً لأنه يضحك أخيراً » (١)

ومن أمثلة هذه الحكايات حكاية أنقذ فيها أبو نواس مسكينا متسولا من براثن تاجر جشع طالبه بعوض عن رائحة طعامه . قالوا : « ان تاجراً ذبح معزة ومر به مسكين فجلس إلى جانب القدر لعله يستسيغ الخبز القفار باستنشاق رائحتها . ثم لقى التاجر فقال له : انك أيها السيد قد أحسنت إلى أمس إذ منحتنى رائحة معزتك فاصطبغت بها هنيئا : فأخذ التاجر بتلابيبه وهو يقول له : الآن علمت كيف ضاعت النكهة من لحمها . فقد اختلستها أنت إذن ولا ندرى . وساقه إلى هارون الرشيد ـ وقد كان شديد المحاباة للتجار ـ فحكم على المسكين بتغريمه اثنتى عشرة روبية يأخذها التاجر ثمنا لنكهة ذبيحته . وخرج المسكين يبكى لأنه لا يملك فلسا من هذه الغرامة ، فوجد أبا نواس فى الطريق وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكائه ، ووعده أن يساعده . ثم أعطاه إثنتى عشرة روبية وأوصاه أن يغدو بها إلى السلطان ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان الغد فجاء إلى المجلس ورأى المسكين يعد الدراهم فأخذها منه ورنها على الأرض ، وسأل التاجر : أسمعت رنينها ؟ قال نعم؟ ومد يده إلى الدراهم يريد أن يقبضها. فرده أبو نواس

(1) Abu Nawas in Life and legend By w.h. Ingrams

وصاح به حسبك .. لقد وصل اليك الثمن رنينا برائحة . فاذا كان المسكين قد شبع من رائحة طعامك فأنت حرى أن تملأ يدك من رنين دراهمه . وترك الروبيات للمسكين وانصرف إلى داره .

وإلى جانب هذه الحكاية وما جرى مجراها حكايات مطولة يقول المؤلف انها تسمع الى الآن بين القبائل الزنجية وتنقل عن غيرها من القبائل التى تتداول طرائف السحرة وأصحاب التعاويذ والكهانات ، ولا ريب أن أبا نواس قد انفرد بهذه الخاصة بين أدباء العربية فى جميع العصور، ولا يقدح فى هذه الحقيقة أن الأميين وأشباه الأميين يروون النوادر عن عنترة بن شداد ويضيفون اليه غرائب الشجاعة والاقدام . فان نوادر عنترة بين الأميين وأشباه الأميين أقل كثيراً من النوادر النواسية فى بابها أو فى أبوابها، فقد أصبحت لها أبواب ولم تنحصر فى باب واحد

ماسر هذه الشهرة المتفردة ؟

سرها بالايجاز ان ابا نواس قد اصبح عند عارفيه الأولين « شخصية نموذجية » اى شخصية تمثل نموذجا اجتماعيا يعيش فى كل زمن ، وسر رجحانه على الشخصيات النموذجية من قبيل عنترة بن شداد ان وقائع الشجاعة اندر من وقائع « الحذاقة » فى المجتمع ، وانها لا تصادف الناس فى كل زمن كما تصادفهم الوقائع التى تدخل فى مجال الشخصية النواسية

وقد قيل ان الناس مولعون بالتحدث عن الشخصيات النموذجية

يضيفون اليها كل خبر من جنس اخبارها

وهذا صحيح . فقد اضاف الناس كثيرا من اخبار الجود الى حاتم الطائى وهى لم تقع له ولا لأحد من الكرماء المعروفين ، وبعضها قد وقع لأناس آخرين على سبيل التحقيق

وكذلك فعلوا باخبار الحكمة مع لقمان ، واخبار الشجاعة مع عنتره وأخبار الطب مع بقراط ، واخبار كل شخصية نموذجية سموا بها فى زمن من الأزمان

لكنّ الأصح انهم يضيفون الى الشخصيات النموذجية ما هو من جنس اخبارها وما ليس من جنسها ، فاذا كان الأمر الأعم انهم يراعون التناسب فى جنس الاخبار فلا يمتنع مع هذا انهم يضيفون اليها اخبارا اخرى لا تناسب بينها وبين تلك الشخصيات ، ويكفيهم منها انهم يعرفون علما مشهوراً يتكلمون عنه كلما ارادوا التعالم بمعرفة المشهورين

ومن طرائف ماحدث لنا من ذلك ونحن ندرس « الانشاء » فى احدى المدارس الثانوية ان تلميذا نقل فى موضوعه عدة اسطر من الشواهد الفلسفية نسبها الى الشاعر ملتون الانجليزى ، واتفق فى ذلك الحين اننى كنت معنيّاً بمعارضة قصائد ملتون على رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، وكنت اعيد النظر فى كل ما كتب ملتون من المنظوم والمنثور ، ولم يكن الكلام الذى نسبه التلميذ الى ملتون مما يناسب اقوال هذا الشاعر وموضوعاته ، ولم اذكر

انني رأيت له كلاما مثله ، فلما حققت الأمر علمت ان التلاميذ قد جروا على هذه العادة للتهويل على اساتذة اللغة العربية الذين لا يعرفون لغة اجنبية ، وان التلميذ رأى امامه مدرسا عربيا فلم يخطر له أنه يعرف لغة غير العربية ، ولم يخطر له بطبيعة الحال ان ملتون كان موضوع قراءته الوحيد على وجه التقريب فى ذلك الحين ، فادعى ما ادعاه وهو يحسب انه فى أمان ، وأنه على ثقة من زيادة درجة او درجتين

ولما سألته على مسمع من زملائه بالانجليزية : ان وجدت هذه العبارة من كلام ملتون ؟ دهش ولم يكد يصدق اذنيه ، ثم تبين انه من الجهل بملتون وكلامه بحيث لا يعلم انه صاحب كتب ومصنفات ، وكل ماعرفه عنه أبيات من المحفوظات سمع أخاه يستظهرها وسمع ان ملتون هو ناظمها . . ؟

وليس اكثر بين العامة والجهلاء من الاحالة على اقوال المشاهير الذين لا يعرفون عنهم شيئا غير اسمائهم ، فمنهم من يحيل على مشاهير عصره ومن يمن فى النعالم فيحيل على مشاهير العصور الغابرة ، ومنهم من له لباقة الوضع والاختلاق فهو يجتهد فى وضع الاقوال التى ينحلها مشاهير الرجال حسبما يتوهم من مقدرتهم ومأثور أقوالهم ، ولهذا يتفق احيانا أن تنحرف « الشخصية النموذجية » من دلالتها الأولى الى غير تلك الدلالة ، حتى يتباعد مابينهما وتصلح كل منها لتمثيل شخصية نموذجية غير الشخصية الاخرى .

وعلى هذا النحو انحراف شخصية « لقمان الحكيم » . فانها تستحق

وحدها دراسة مستقلة من هذه الوجهة دون غيرها ، ونعنى بها دلالة « الشخصية النموذجية » فى العصور المتتابعة وكيف يطرأ عليها الانحراف عن وضعها الأول شيئا فشيئا حتى يصح ان تصبح عنوانا على انسان آخر او عدة اناس غير صاحبها

فى مبدأ الأمر عرف لقمان بطول العمر وامتداد الأجل فى ازمنة متعاقبة ثم تأوّل المتأولون طول عمره بحكمته وسحره وعرفانه سر الحياة والموت ، وانه بهذه المعرفة قرن عمره باعمار سبعة نسور كان يربيها عنده واحدا بعد واحد حتى انتهى أجله بانتهاء أجل النسر السابع فمات معه فى لحظة واحدة ، ومن حكمة المواعظ والسحر والعلم باسرار الحياة تحولت حكمة لقمان «الحكيم» الى الطب والعلاج وغلبت عليه خلة القدماء الذين تعودوا ان يكتموا عن الناس اسرار صناعاتهم فلا يبوحون بها الا على قدر ولا يختصون بها غير الصفوة المختارين من تلاميذهم ومريديهم ، ولا شك ان حكاية «ماء اللفت» هى احدث هذه الأخبار الموضوعة او المختلقة ، ولكنها مع ذلك حملت معها بقايا العصور الغابره من اوصاف هذه الشخصية النموذجية كما عرفها على التتابع أبناء تلك العصور

وخلاصة الحكاية التى تروى على عدة روايات ان ولىّ الأمر فى عهد لقمان حبسه لغضبه عليه او خوفه من سحره ومكره ، أو لضنه عليه وعلى الناس باسرار حكمته وطبه ، ثم سمع فى حبسه بمرض انسان يوشك ان يموت ودواؤه فى ماء اللفت ، وشق عليه أن يخالف عاداته أو يخالف أمر

الحاكم فلم يشأ أن يبوح بسر الشقاء الا باسلوب التورية والجناس ، فصاح في سجنه يقول : « مات العليل وما ألفت له دوا » .. فعلم السامع العليم بأسلوبه ان ماء اللفت هو دواء العلة ، فاعطاه الدواء وشفاه

وفي هذه الحكاية مسحة من كل شخصية نموذجية تشكّل بها لقمان في تاريخه ، وآخرها شخصية الطبيب التي لم تظهر في العلم الحديث الا حين شاعت تسمية الطبيب بالحكيم ، وشاع التداوي بماء اللفت بين العامة وهم يتداوون به الى اليوم

وقد انحرفت « الشخصية النموذجية » التي عرف بها ابو نواس على هذا النحو فصارت في آخر الأمر الى هذا النموذج الأخير ، وذاك هو نموذج الحاذق اللبق السريع الى الجواب المفحم ذي الدراية بالمخارج السهلة من الورطات العسيرة ، وقد كان ابو نواس ولا ريب على حظ من اللباقة غير قليل ، وكان يحسن الجواب ويتحيل على اللذات ، ولكنه لم يكن آية الآيات في زمنه على سرعة الجواب والخروج من المآزق ، بل لعله كان الى التورط في المآزق اقرب منه الى الدراية بمخارجها ، ولعله كان من اولئك الذين نسميهم في عصرنا « باللخمة » لتعذر الجواب عليه في مواقف الحرج ، فلم يكن يحسن الدفاع عن نفسه حين تتألب عليه التهم بين ايدي الخلفاء والامراء ، ويروى في اخبار مجونه انه كان يذهب الى مجالس القيان متعمدا اخجالهن فينقلب الأمر عليه ويخجلنه ويفحمنه فلا يحير جوابا ولا يقدر

على البقاء فى المجلس ، وابياته فى جنان مشهورة حيث يقول :

وان وقفت له كيما يكلمنى فى الموضع الخلو لم ينطق من الحصر

ولا يكون كذلك من هو مثال « الشخصية النموذجية » فى سرعة الجواب وافحام النظراء ، ونحسب انه لم يكن صالحا بطبيعة تكوينه للافحام والاحراج ، فانه كان ـ كما تواتر وصفه ـ الثغ نحيف الصوت مضطرب الاعصاب ، وليس أيسر من احراج مثله بمحاكاة لثغته ونحافة صوته واضطرابه ، وانما آلت « شخصيته النموذجية » الى هذه الصورة بحكم الشهرة وما يفهم كل جيل من مناسباتها واحوالها ، فاذا تحولت به الشهرة من شخصيته الاولى الى شخصية الشاعر الملازم للبلاط المنادم للأمراء فى ساعات السكر والغضب والنزوات والبدوات فلا جرم تكون النكتة الحاضرة والحيلة السريعة من ادواته وآلاته ، ويصبح تصور الناس لصفات الشاعر هنا تابعا لما يتصورونه من صفات الأمير المطاع ، حتى ليكون من صفاته فى بعض الازمنة انه يغضب ويأمر بالقتل بغير سبب ، وانه يدين ويعفو فى لحظة واحدة ، وانه لا يقبل الكلام الا ان يكون من باب الملحه او الكنايه او الجناس

هذه الشخصية النموذجية « حديثة » ولا ريب طرأت بعد عصر أبى نواس بعدة أجيال ، وسنعرض لحقيقة هذه الشخصية فى الفصول التالية ونعود به إلى الأصل الذى نجم منه النموذج الأول ، ولكننا نزيد على

ماتقدم فى هذا الفصل أن الشهرة النادرة التى ظفر بها أبو نواس لم يكن مدارها كلها على شخصيته النموذجية ، بل يرجع الكثير منها إلى اقترانه بطراز آخر من الشخصية النموذجية لعله أشهر أمثاله فى التاريخ العربى أو فى تاريخ العالم ، وتلك هى شخصية هارون الرشيد الذى قيل عن أبى نواس أنه كان شاعره ونديمه ، وأنه كان يلازمه فى حله وترحاله ، ويطلع على أسرار بيته وخفايا حريمه

ولأمر ما شاعت عن هارون الرشيد هذه الشهرة ، وتعلم من لايعلم شيئاً عنه أن يتشبه به كلما قضى ليلة لهو ومرح وخيل إليه أنه أحاط نفسه بكل ما يشتهيه المشتهى من الترف والمتاع ، ولم يكن هارون الرشيد بهذه الصفة على التحقيق ، ولم يكن شاهروه بهذه السمعة جميعاً يحسنون النية ويجهلون معنى ما يفترون ، فربما كان منهم من يحنق على الخلافة العباسية ويختلق المثالب لها ولأقطابها على سبيل الدعوة لخصومها . وربما كانت نوادر ألف ليلة كلها أوجلها من الأخبار الموضوعة للتشهير بدولة والترويج لدولة غيرها ؛ وقد كان أبو نواس ذريعة للتشهير بالخلفاء فى زمانه قبل تمادى الزمن واختفاء الحقيقة أو نسيانها ، فكان أعداء الخليفة الأمين بن هارون يعيبونه فلا يجدون فى عيبه ماهو أقدح وأقبح من مصاحبة أبى نواس وتقريبه إلى مجلسه ، فلا عجب أن تعمل الدعوة بعد قرن أو قرنين عملا يجول فيه الملفق والمفترى كل مجال ، ولا يرى من يعترضه بين العامة إذا جمع فى تهمة واحدة

بين الخليفة المثالى من بنى العباس والشاعر المثالى من أبناء عصره ، وهو أبو نواس .

والمحافظة على اسم ذى كلمتين أسهل من المحافظة على معالم شخصية إنسانية تحتاج المحافظة عليها إلى علم بخصائص الطباع والنفوس وعلم بوقائع التاريخ ومطامع السياسة . ولكن الطوائف التى شاع بينها اسم هارون الرشيد كانت كالطوائف التى شاع بينها اسمه أبى نواس ، أو كانت هى إياها كما يقول النحاة . فتناولت بالتحريف اسمه كما تناولت معالم شخصية ، وسمته هارون الرشيدى كما سمت صاحبنا أبا النّواس بتشديد الواو ، ولعل تلقيب هارون الرشيدى قد نشأ فى مصر مع أقوال الدعاة الفاطميين فيها فحسبه المتحدثون والسامعون منسوباً إلى رشيد أو سبقت النسبة إلى ألسنتهم لأنهم يسمعونها مقترنة بكثير من الأسماء ، ولا نخالها من تصحيف المطبعة حين طبع كتاب ألف ليلة وليلة بمصر غير مرة ، فان تصحيف المطبعة إنما جاء على ماهو ظاهر بعد تصحيف اللسان .

وجملة القول أن « شخصية نموذجية » واحدة تفعل الأعاجيب فى تزويد صاحبها بالأخبار والأوصاف من حيث لا يحتسب ، فماذا تفعل شخصيتان اثنتان ؟ .

لاجرم يظفر الحسن بن هانىء بنصيب من الأخبار والأوصاف والمعالم الشخصية لم يظفر به شاعر عربى غيره فى المشرق أو المغرب ولا فى الزمن

القديم أو الزمن الحديث . . ولا جرم يحتاج بعد ذلك إلى تمييز وجهه الصحيح بين شتى الوجوه التى عرضت على الناس باسم أبى نواس .

إلا أننا نعود فنقول أن هذا النصيب الكبير من الشهرة لم يأت من جانب «الشخصية النموذجية» وحدها ولا من تلاقى الشخصيتين النموذجتين بالحق وبالباطل حيث التقت شخصية الشاعر وشخصية الخليفة .

فمن مزايا السمعة السيئة أنها تكف الحسد عن صاحبها من ذوى السمعة الحسنة .

وقد كان أبو نواس سيء السمعة ولا مراء ، وكان من انداده الشعراء وأضرابه فى سوء السمعة من يحسده وينفس عليه مكانته ولهج الناس بأخباره وأشعاره . أما ذوو الوقار من علماء الأدب واللغة ورواة الشواهد والأمثال فقد هان عندهم فى ميزان الجد والوقار فلم يحسدوه ولم يضنوا عليه بالشهادة « اللغوية » والتزكية العلمية ؛ ولم ينكروا عليه البصر باللغة والسلامة من الخطأ ، وأجمعوا ، أو كادوا يجمعون ، على أنه أسبق المحدثين بعد الجاهليين والمخضرمين فى مقام الاستشهاد باللفظ المحرر والأسلوب الجزل والنسج القويم ، ولو كان له بينهم وقار كوقار أبى الطيب أو أبى العلاء — لما خلصت له هذه الشهادة بغير بخس وانتقاص : فقد تكفلت لهم ببخسه وانتقاصه سمعة سيئة لانتقاضاهم من عندهم مزيداً عليها ، وربح أبو نواس من هذه « المزية » منزلة الأستاذين المتفقهين فى اللغة والأدب ، فأخذ من

أهل الوقار كما أخذ من أهل المجون ، ونجا من الاهمال حيث استحق الاهمال بميزان الخلق والدين .

ولايزال بعد كل هذا مدد آخر من أمداد الشهرة النواسية غير الشخصية النموذجية وغير شهادة العلماء الاجلاء والرواة الثقات .

ذلك المدد الآخر هو الفاكهة المحرمة ، أو الفاكهة المحببة ، على العهد بين كثير من الناس أن يحبوا كل ممنوع ويلهجوا بكل محظور .

فقد كانت الفاكهة المحرمة بضاعة أبى نواس سواء حرمتها شريعة الأخلاق أو حرمتها شريعة الأديان ، وكانت الزندقة والشذوذ بعض ما يبيع فى سوق الفسوق . وشأن الفاكهة المحرمة أن يسأل عنها سراً من لايسأل عنها علانية ، وأن يقاربها من يألفها ويتجسس عليها من يجهلها وينكرها ، وأنها من بضائع السوق السوداء كما نقول فى العصر الأخير، فهى من بضائع المساومة والمغالاة .

وفى عصرنا هذا نظير لأبى نواس فى الآداب الغربية سيأتى الكلام على المشابهة بينه وبين أبى نواس فى بعض الفصول التالية ، لأنها مشابهة بمقاييس الآدب والخلق والمزاج والدراسات النفسية ، وأهم من ذلك فيما نحن بصدده أنها مشابهة فى أسباب الشهرة بالفاكهة المحرمة وما يصح أن يسمى بالزندقة الاجتماعية .

فالشاعر الايرلندى الحديث « أوسكار وايلد » أشبه « الشخصيات

النموذجية » فى الأدب الغربى بأبى نواس ، ومهما يكن من قيمة أوسكار وايلد الفنية فشهرته أكبر من قيمته بكثير ، ولم يعرف فى القرن التاسع عشر أديب استهجنت سيرته كما استهجنت سيرة « اوسكار وايلد » ولا أديب شاعت كتبه من أجل ذلك كما شاعت كتب هذا الأديب المحروم المجدود ؛ وقد ترجم إلى كل لغة أوربية وكتب عنه النقاد فى كل بلد وتضاعفت الكتابة عنه بعد شيوع التحليل النفسى والمباحث العلمية فى مسائل الجنس والأخلاق ، وإنما أصابه هذا النصيب فى سوق الفاكهة المحرمة التى اتجر فيها من قبل أبو نواس

وكل سبب من أسباب هذه الشهرة هو فى الواقع غطاء على حقيقة أبى نواس فوق غطاء ؛ فهى تخفيه ولا تبديه ، ومن عمل الدراسة النفسية والدراسة التاريخية أن تبرزا تلك الحقيقة من وراء تلك الأغطية ؛ وهذا ما سنبدأه فى الفصل التالى بالكلام على سريرته النفسية : وهى السريرة النرجسية .

النرجسية

كان أبو نواس إذن « شخصية نموذجية »

ولكنها ليست هى الشخصية التى شاع بها ذكره بين الأميين وأشباه الأميين ، وبين طائفة من خاصة المطلعين على الأدب الفصيح، وهى الشخصية التى تقوم على الحيلة والجواب السريع والقدرة على الخلاص القريب من المآزق والمحرجات .

فما هى إذن حقيقة الشخصية النواسية التى أشاعت ذكره فى أيام حياته وقبل أن تتحول بها الشهرة من دلالة إلى دلالة ؟

أيسر مايقال فى كلمة واحدة أنه « إباحى »

وقد كان حقا إباحياً غاليا فى الإباحة ، إذا كان المقصود بالإباحه أنه كان يستحل المحرمات ويخالف الدين والعرف والطبيعة .

ولكن الإباحى قد يخفى رذائله وموبقاته ، وقد يدارى الناس ويتسم بينهم بسمة الصلاح والتقوى ؛ ولعل الأكثرين من الإباحيين فى عصر أبى نواس خاصة كانوا على هذه السنة ، لأنه كان باتفاق واصفيه عصر شكوك واختلاط ونفاق

وأيسر مايقال بعد ذلك أنه « إباحى متهتك » يظهر أمره ولا يتكلف لإخفائه .

وذلك كذلك وصف صحيح . فمن قال عن أبي نواس أنه « إباحي متهتك » فقد وصفه بما كان عليه . لأنه كان يقارف المنكرات ويعلنها ولا يحفل بمداراتها ، وهذا يكفي للصدق في وصفه على حقيقته ، ولكنه لا يغني شيئاً إذا كان المقام مقام دراسة نفسية . إذ المرء قد يستبيح الرذائل ويتهتك في البطالة ويتمادى في تهتكه غاية التمادي لعلتين متناقضتين ترجع كل منهما إلى خلال نفسية بعيدة من خلال الأخرى في بواطنها وظواهرها.

فقد يتهتك المرء لأنه هين على نفسه يعلم أنه هين على الناس ، مسلم بحقارته شاعر بقلة الجدوى من التستر والمداراة . وأنه يهبط من المهانة إلى حضيضها ؛ فلا ينفعه أن يحتجب ولا يضره أن يتكشف ويتبذل ؛ ومثله في هذا مثل الوضيع الساقط الذي لا يبالي أن يخرج للناس في مباذله إذ ليس له زي غير المباذل ، ولسان حاله كلما أحاطت به نظرات الاحتقار قول القائل « أنا الغريق فما خوفي من البلل » ... بل لعل النظرات لا تحفل به وتتخطاه لهوان شأنه فلا تقف عنده محتقرة أو غير محتقرة

هذه حالة من حالات التهتك أو المجون ، وهو كلمة واحدة في اللغة العربية تعبر عن الإباحة المتهتكة

أما الحالة الأخرى فهي نقيض هذه الحالة في باطنها وظاهرها ، لأن صاحبها يتحدى بها الناس عامدا أن يسخر منهم ويكشف رياءهم ، وقد يهون عليه شأن الرياء والصراحة ، فلا يعلن رذائله كراهة للرياء

وحبا للصراحة . بل يعلنها لأنه يريد أن « يقرر شخصيته » ويشعر الناس بوجوده ويستخف بما يسترونه ويعلنونه ، فلا هو مكترث لهم متسترين ولاهو مكترث لهم معلنين .

حالتان نقيضتان : حالة من ينسى « شخصيته » ولا يراها أهلا للذكر مشهوراً أو غير مشهور ، وحالة من يقرر « شخصيته » ويتعمد الجهر بالمخالفة لأن الجهر هو سبيله إلى هذا التقرير »

فأى الحالتين هى حالة أبى نواس ؟

ليست هى الحالة الأولى على التحقيق ، لأن ماروى عنه وما روى من كلامه يعربان عن رغبة فى التهتك والمجاهرة به ولا يقفان عند حد الجرأة وقلة التكلف للمداراة

ولانستقصى هنا كلامه فى هذه الأغراض، فان لهذا الإستقصاء مواضعه عند نقده وتحليله . ولكننا نجتزىء بأبيات قليلة فى جملة أغراضه تشير بغير عناء إلى هذا المعنى

فهو الذى يقول فى الجهر بمعاقرة الخمر بيته المشهور

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر
ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

وهو الذى يقول فى العشق :

الحمـــد لله أنى على حداثة سنى
فقت المحبين طراً ببعض ماشاع عنى

وهو الذى يقول فى مقاربة اللذات عامة :

أطيب اللذات ماكا ن جهاراً بافتضاح

وهو الذى سمى السمعة السيئة جاها يحتفظ به ولا يفرط فيه حين نصح له أبو العتاهية بالتوبة فقال ساخراً منه .

أترانى يا عتاهى تاركا تلك الملاهى..
أترانى مفسداً بالنسـ ـك بين المرد جاهى

ومهما يكن من تبذله فلم تكن مسألة التبذل عنده علما بهوانه ورضى بهذا الهوان ويأسا من دفعه بالصيانة والمداراة . إذ كان معروفا عنه أنه كان يتعمد أن يلقى ذوى الوجاهة والرئاسة بالتيه والكبرياء، وكان يذكر ذلك فى شعره فيقول فى غير موضع .

لقد زادنى تيها على الناس إننى
أرانى أغنـاهم وإن كنت ذا فقر

وإنما كانت مسألة التبذل عنده مسأله ظهور متعمد واستخفافا برأى

الناس لأنه يريد أن يلقى فى روعهم أنهم أهون لديه من أن يستر لهم وأن ينزل عن لذة من لذاته لمرضاتهم ، وأنهم من هوانهم عليه يتحداهم ويطلب مذمتهم ويؤثرها على ثنائهم .

والواقع أن الاغاظة والظهور هما بيت القصيد ، وأن صاحب هذا المزاج قد يهمه أن يغيظ جمهرة الناس بالمخالفة وإن كانت مخالفة إلى التقوى والصلاح ، لأن « الظهور » وإثارة الشعور هما الهوى الغالب عليه .

ولو كانت الاباحية النواسية مقصورة على ما اشتهر به أبو نواس من ادمان السكر وإيثار الذكران على الأناث لما فسرتها ولا فسرت شيئا منها هذه الظاهرة النفسية الواضحة : ظاهرة التحدى بالاباحية المتهتكة فان صاحب الاباحية المقصورة على ادمان السكر وإيثار الذكران على الاناث قد يخجل منها ويسترها ويجتهد اجتهاده للخلاص منها ، وقد ينتهى به الأمر الى التهتك الذى وصفناه فى الحالة الأولى وهى حالة المهانة والاستكانة اليها

وانما تفسر آفات ابى نواس جميعا ظاهرة نفسية اخرى هى «النرجسية» التى جعلناها عنوانا لهذا الفصل ، وفيها تفسير لآفته الكبرى وتفسير للآفات الصغرى التى تتفرع على جوانبها

هذه « النرجسية » شذوذ دقيق يؤدى إلى ضروب شتى من الشذوذ فى غرائز الجنس وبواعث الاخلاق ، ويلتبس الأمر من أجل هذا بين النرجسية

وتلك الضروب المختلفة من الشذوذات الجنسية ، وهى مخالفة لها فى دخيلتها مناقضة لبعضها فى ميولها ونزعاتها ، فقد تميل بصاحبها الى العلاقة الطبيعية بين الذكر والأنثى أو تميل به الى علاقة شاذة بين شخصين من جنس واحد ، كما كان يحدث احيانا من ابى نواس فى غزله بالذكر تارة وغزله بالمؤنث تارة اخرى ، وفى الجمع احيانا بين ما يزعمه عشقا لأكثر من فتاة واحدة وما يزعمه عشقا لأكثر من فتى واحد ، ولا أصل للعشقين فى نهاية المطاف غير النزجسية فى قرارها العميق

وقبل ان نشرح هذه النزجسية كما يفهمها المحللون النفسانيون نذكر نشأة اللفظ والاصطلاح ، لأنها ذات صلة قوية بالمعانى التى أوحت إلى المحللين النفسانيين ان يطلقوا الكلمة على مدلولها بين الآفات الجنسية على الخصوص

كان اليونانيون الأقدمون يطلقون اسم نرجس على فتى من فتيان الأساطير باع الحسن ساحر الشمائل ، يفتن من يراه ويشقى بجماله وتيهه قلوب العذارى الحفرات فلا يلتفت اليهن ولا يستجيب لضراعتهن ، ولم يزل كذلك حتى ضجت السماء بدعاء عاشقاته وصلواتهن الى الأرباب أن يصرفنه عنه او يصرفه عنهن ، واستجابت « نمسى » ربة القصاص والجزاء الى هذا الدعاء فقضت عليه ان يهيم بحب نفسه ويلقى منها الشقاء الذى تلقاه منه عاشقاته . قال رواة الاساطير : فما هو إلا أن ذهب يشرب

من ينبوع صاف حتى لمح بصورته فى مائه ، فوقف عندها يعجب من جمالها واذهلته الفتنة عن شأنه فلم يبرح مكانه مطرقا الى الماء ليتملى تلك الصورة ويرتوى من النظر اليها ، فلا يزيده النظر الا لهفة وشوقا ولا تزيده اللهفة الا هزالا وذبولا حتى فنى وذهبت عرائس الماء تطلب رفاته فلم تجد فى مكانه غير نرجسة مطرقة ترنو الى الماء ولا ترفع بصرها الى السماء ، فالنرجس أبدا مطرق مفتوح العين لا يشبع من النظر الى خياله على حوافى الجداول والغدران

وتروى الاسطورة على رواية اخرى ، فيقول الرواة انه لما لمح طلعته فى الماء حسب أنها عروس الينبوع فألقى بنفسه فيه يحاول أن يمسكها فغرق ولم يعثر الباحثون عنه على جثمانه ، ولكنهم وجدوا فى الينبوع نرجسة على مثاله فغرسوها على حافته ، وكانت أبا للزهر الذى يعرف باسمه ويتطبع فى عشقه لصورته بطباع أبيه .

ومن غلوهم فى عشق « نرجس » لنفسه يزعمون أن حملة الأرواح فى نهر الموت الذى يفصل بين الدنيا والآخرة عجبوا له حين رأوه مطرقا إلى النهر ولم يزل منهم العجب حتى نظروا حيث ينظر وعلموا أنه برح الدنيا ولم يبرح مفتونا بخياله كما كان وهو بقيد الحياة .

وللقصة علاقة بقصة أخرى عن عروس من عرائس الأساطير تسمى « الصدى » وترتبط قصتها بقصة نرجس لأنها كانت تهواه

قالوا : ان هيرا زوجة زيوس ابى الآلهة والأرباب خرجت كعادتها تتجسس على خليلات زوجها وتتعقب الحور اللائى يسعدن بقربه من ورائها ، فلما كانت فى بعض الطريق لقيتها عروس الصدى فشغلتها عن سعيها بثرثرتها وفضولها وحلاوة أحاديثها التى تحكى بها مناجاة ضميرها ، فلما غابت عنها نظرت حولها فاذا بالحور والعرائس الإلهيات قد تغفلنها وهى مشغولة مع عروس الصدى ، فغضبت على تلك العروس الثرثارة وقضت عليها أن تعيى بابتداء الكلام فلا تقدر على النطق إلا ترديداً لما يلقى إليها .

ثم هامت عروس الصدى بنرجس وهو على دأبه من الهيام بنفسه ، وأبلاها الحب لأنها عجزت عن مفاتحته بغرامها ، وكادت أن تيأس لولا أنها ظفرت به يوما ينادى أحد رفاقه ، ويصيح به من بعيد : ألا أحد فى هذا المكان ..

فسنحت لها الفرصة وأجابته قائلة فى شوق وحنين : أحد فى هذا المكان ..

قال : هلمّ ...

قالت : هلمّ ...

فأعرض محنقاً وهو يقول : « لا . لا . لست أعنى هذا . سأموت ولا يكون لك سلطان علىّ »

فلما مضى فى سبيله غير ملتفت اليها عافت نفسها ولاذت بالكهوف والمغاور فلا يحسها السامع بعد ذلك إلا فى كهف أو مغارة ، ومن هنا

علاقة الصدى بمن يحب نفسه ويروقه أن يستمع إلى كلامه معاداً إليه .

ويرى الكاتب بلوتارك أن كلمة نرجس مأخوذة من كلمة نارس أونارك الأغريقية بمعنى الخدر والغيبوبة ، ومنها كلمة نار كوسس Narcosis التى تطلق على النبات لمخدر المذهب للحس . ولم يكن النرجس من هذا النبات ولكنهم أطلقوا عليه اسمه كأنه قد تعاطى المخدر وبدا لمن يراه كالنائم المسبوت .

وكل هذه الأقاويل عن النرجس والصدى والخدر والسبات لاحقة بما تنطوى عليه آفة « النرجسية » من الغرائز أو من الميول والأحاسيس ، فهى آفة متصلة بالغيبوبة والنشوة والهيام وحب المصاب بها لملامحه وكلامه ، ولهذا وقع عليها اختيار المحللين النفسانيين ، فلم يجدوا اصطلاحا أوفق منها لأعراض تلك الظاهرة النفسية ، مع عراقة الاصطلاح فى اللغة اليونانية التى يختارونها لابتداع الأسماء الجديدة فى العلوم ، كما فعلوا بأسماء السيارات الفلكية أو العناصر والعقاقير التى تكشف حديثا ، وأوفقها عندهم ما اشتهر فى الأساطير .

* * *

وأول من أدخل هذا المصطلح فى الطب النفسانى الدكتور هافلوك اليس Havelock Ellis رائد المباحث الجنسية المشهور ، ثم توسع الأطباء النفسانيون فى دراسة هذه الآفة وتتبعوا أعراضها ولوازمها واستقصوا

ما هو من لوازمها الأولية وماهو من لوازمها الثانوية أو التبعية ، فأصبحت بعد هذه الدراسات قسما قائما بنفسه من شذوذات الغريزة الجنسية واشتملت على آفات متعددة تنطوى تحت عنوان واحد هو عنوان النرجسية .

وتعنينا هنا شعابها التى تتصل بدراسة أبى نواس وموضوعات عشقه وغزله ، وأهمها شعبتان : تسمى إحداها الاشتهاء الذاتى Auto-erotism وتسمى الأخرى التوثين الذاتى Auto-Fetishism وبينهما فرق دقيق ولكنه غير حاسم لأن أعراض كل منهما قد تنساب إلى الأخرى فى مسارب النفس الخفية ودخائل الغريزة المكنونة . وما أكثر المسارب والدخائل فى هذه الشؤون

فالاشتهاء الذاتى يغلب على الحالات الجسدية التى تقترن باختلاف وظائف الجنس فى صاحبها ، ويبلغ من اختلال هذه الوظائف أن المصاب به يعنى إذا طال النظر إلى بدنه عاريا فى المرآة وما اليها ، وأنه يشتهى بدنه كأنه بدن إنسان غريب عنه ولكنها شهوة يبالغ فيها المرض ، لأن الإعجاب بالأبدان الغريبة لا يستغرق شعور المرء كما يستغرق الاشتهاء الذاتى صاحبه ويغريه على الدوام بتأمل جسده ومعاودة النظر اليه ، ويحدث أحيانا ألا يكون النظر استحسانا محضا ، بل أسفا لبعض النقص واجتهاداً فى تحسينه والمغالطة فيه .

والتوثين الذاتى يغلب على الحالات العاطفية والفكرية ، فيتخذ المصاب به من نفسه وثنا يعبده ويعزه ويذلله ، ويشوب هذا التوثين حب

كحب المرء لمعشوقه ، فهو لا يخلو من اختلال وظائف الجسد ولكنه لا يبلغ بها مبلغ الحالة الأولى

وتلازم الاشتهاء الذاتى والتوثين الذاتى معاً لوازم متفاوتة فى درجة الالتصاق بالآفة وتوابعها .

فمن أبرزها وأقواها لازمة التلبيس أو التشخيص Identification

ومنها لازمة العرض Exhibitionism ولازمة الإرتداد Centripetal Regression

فلازمة التلبيس والتشخيص لا غنى عنها فى هذا الضرب من الشذوذ الجنسى وهو عشق الإنسان لذاته من الناحية الشهوانية ، فالشاذ فى حب جنسه أو حب الجنس الآخر يجد طلبته ويقضى مأربه . أما الذى يشتهى بدنه فليس فى وسعه أن يقضى مأربه منه بغير الاحتيال لذلك بالتلبيس والتشخيص ، فهو يلبس شخصيته شخصا آخر يتوهم أنه هو ذاته أو يحل محل ذاته ، وكما يفعل جالد عميرة حين يضع أمامه صورة أو يتخيل فى ذهنه عشيقة يتوهم أنه يواقعها يحدث للمصاب بالاشتهاء الذاتى أنه يختار شخصا آخر يحله محل نفسه فى أوصافه البدنية أو الخيالية ، ويتعلق به وهو فى الواقع متعلق بذاته .

ولازمة العرض تشمل الإظهار بجميع درجاته ، فاذا أمعن فى الجسدية والشواغل الحسية شوهد المصاب به وهو يكشف عورته ويعرض أعضاءه

ويتعرى من ثيابه أو يلبس الثياب التى تشبه العرى ولا تستر ما وراءها

ولكن الأكثر الأعم فى لازمة العرض أنها لا تمعن هذا الامعان إلا فى حالة الجنون وما يقاربه ، وأنها تتحول إلى الإظهار ولفت الأنظار على أساليب لا تحصى ، وقد ينتهى بها التناقض أحيانا إلى إعلان التقوى والظهور بين الناس بآثار التعذيب والتمريغ وسمات العبادة وإذلال النفس بتشويه الجسد وتلويثه .

ومن لم ينته التناقض به هذا المنتهى يشاهد عارضا نفسه بالأزياء الغريبة والألوان الصارخة ، ماضيا فى كل عمل من أعماله العامة على سنة الاشتهار بالمخالفة ، على حد القول الشائع . « خالف تعرف ! »

أما الارتداد فهو يعترى الشواذ على أطوار منوعة ، وانما يعترى المرجسيين من تلبيس ذواتهم بغيرهم ، أو خلع ذواتهم على شخص آخر يلتمسون المشابهة بينهم وبينه ، ولكنهم لا يظفرون فى كل حين بشخص تام الشبه بهم فى كل صفة وصبغة . فاذا اتفق لأحدهم أنه رأى شخصا يشبهه فى الملامح والقوام ويخالفه فى القوة فالذى يحدث فى هذه الحالة أنه ينتحل صفة القوة لنفسه كأنه ارتدها إليه من الشخص الذى تلبّس بملامح ذاته ، وتتفاوت درجات الارتداد بتفاوت المصاب فى درجات المرض . فمن المصابين من ينتحل صفة ليست له ولكنها قابلة للادعاء كالقوة والمهارة والمهابة ، ومنهم من ينتحل صفة ليست له ولكنها لا تقبل الادعاء كالطول

واللون الأبيض أو الأحمر ، فيكون قصيراً ويروض نفسه على اعتقاد الطول أو أسمر ويروض نفسه على ادعاء البياض والشقرة ، بل قد يدعى الوصفين المتناقضين إذا تناول بالتلبيس والتشخيص مثالين مختلفين .

وهذه الحالة عرضة للأعاجيب فى أوهامها وأخيلتها ، فقد تفضى بصاحبها إلى مجاراة الطبيعة والشذوذ فى وقت واحد . فيخلع ذاته على امرأة مشتهاة فهو من هنا طبيعى فى حبه للجنس الآخر ، ثم يتشبه بالنساء لأنه أعاد إليه بالارتداد خصلة من خصال تلك المرأة لا توجد فى الرجال ، فهو من هنا شاذ عن السواء يحس إحساس المرأة نحو الرجل الذى تعشقه وتتعصباه .

* * *

هذه اللوازم تنطبق على أبى نواس فى خلائقه الأولية وخلائقه التبعية وتفسر جميع أحواله حيث لا يفسرها ضرب آخر من ضروب الشذوذ فى المسائل الجنسية .

فالشذوذ الذى يميل بصاحبه إلى عشق أبناء جنسه والعزوف عن الجنس الآخر آفة لا تنطبق على أبى نواس ؛ لأنه يغازل الجوارى كما يغازل الغلمان ، وكلامه كثير فى استحسان الفتاة لأنها كالغلام واستحسان الغلام لأنه كالفتاة

فهو يقول فى جارية :

غلام وإلا فالغـــــلام شبيهها
وريحان دنيا لذة للمعانق

ويقول فى غلام :

من كف ذى غنج حلو شمائله
كأنه عنـد رأى العين عذراء

ويقول فى أخت وأخ :

يديرها دعجـــاء رُودٌ وأدعج
أخ واخته فى القوم واسماهما إسم

يقال له معن فأما نكسته
تنادى أخته يوماً فمنكوسه نعم

والشذوذ بمعنى حب الإنسان لجنسه Homosexuality لايفسر هذه الحالة ويزيدها إبهاما عند البحث عن أسباب النزعة ومواضع الزيغ فيها ، وإنما تفسرها النزجسية وما طبع عليه المصابون بها من اختلاف الهوى حسب اختلاف التلبيس والتشخيص. فإذا اشتهى ذاته ولبسها بواحدة من الجنس الآخر ظهر انه مستقيم على سواء الطبيعة ، وهو فى الحقيقة شاذ على الحالتين ، لأن العلة هى الاشتهاء الذاتى ولازمة التلبيس والتشخيص .

وقد كان هـذا التلبيس يبدو فى غزل أبى نواس صراحا مكشوفاً حين

يختار لهواه غلاما ألثغ كأبى نواس ، وإن كانت لثغة هـذا بالراء ولثغة ذاك بالسين ، فيقول :

وآ بأبى ألثـغ لاججته فقال فى غنج وإخناث
لما رأى منى خلافى له : كم لقى الناث من الناث
نازعته صهباء كرخية قد حلبت من كرم حرّاث

أو يختار غلاماً لا يحسن النطق بالراء تكسيراً لها كما يقول :

يكثر الراء وتكسيرها يدعو مع السقم إلى الحتف

أو يختار « ظبياً » يعجبه منه ما يصنعه فوه بالراء :

يا ذوب قلبى من ظبى كلفت به
ما تصنع الراء فى فيه إذا نطقا

وتعجبه البحة التى كانت إحدى خواصه الصوتية ، فلا ينساها وهو يقول فى وصف غلام

وبه غنة الصبا تعتليها بحة الاحتلام للتشريف

وكان هذا التلبيس يبدو كذلك مكشوفاً على نحو آخر حين يقول فى جارية تتشبه بالكتاب :

مـوزرة مؤنثـة بها ألم ، وبى ألم

تجرر ذيل مستنزرها وقارس أخفها فلم

ويذكر مثال الحسن فى الجنسين إذا تكلم عن حسناء كما يقول فيمن عرضوها عليه ليتزوجها :

ولو أنها فى الحسن كانت كيوسف
وبلقيس أو كانت تحط مثال

وقالت : تزوجنى على مهر درهم
لقلت اغربى عنى فمهرك غال

ومما يشار إليه فى مجونه ، ولا حاجة إلى إيراده ، انه كان يخاطب معشوقيه من الغلمان فيقول لهم انه كان معشوقاً مثلهم ويحكى لهم كيف يتشبهون به مع عاشقيه ، وفى نسيبه بالنساء تدليل لنفسه يومىء إلى أنوثة كامنة فى طبعه كما يقول لإحداهن

لا تفجعى أمى بواحدها لن تخلفى مثلى على أمى

وفيه استغاثة تحكى استغاثة المرأة بأخواتها :

تجمعوا علـــونى يا اخوتى كيف آتى
يا ويلتــا أى شىء بين الحشا واللهاث

فهو فى طبيعة النرجسية يسهل عليه أن يلبس ذاته اشكال الجنسين ،

وأن يكون شاذاً فى حالة ومساوقا للفطرة فى حالة ، وما كان على الفطرة فى الحالتين . !

ومما هو خليق بأن يتأنى عنده الدارسون للرجسية ولوازمها أن « جنانا » كانت أحب معشوقاته اليه وانها كما جاء فى كتاب ابن منظور عن أخبار أبى نواس كانت تحب النساء وتميل اليهن ، فربما كان هذا الكلف الخاص بهذه الفتاة لأن لازمة التشخيص والتلبيس تتحقق بها على نحو لايتحقق بغيرها ، إذ كانت لها السمات النفسية والبدنية التى تتراءى فيها ميول الجنسين

وخليق بالدارسين كذلك أن يلتفتوا إلى سر هيامه بالجارية « حسن » واستيحائه من إسمها معنى التوحيد بينه وبينها كما قال متغزلا بها متشفعا لديها بهذه الحرمة .

ان لى حرمة فلو رُعيت لى ... لاجوارٌ ولا أقول قرابة
غير أنى سميٌّ وجهكَ لم أحر ... مه في اللفظ والهجا والكتابة
فاذا ما رُعيت غير مُكنىٍّ ... لم أقصر حفظاً له فى الإجابة
فاكتبى وانظرى الى شبه الأ ... حرف ثم اجمعيهما فى الحسابة

فليس أغرب فى مسارب الشعور الجنسى من الانتقال بتداعى الخواطر بين هذا التشبيه والتقريب وبين عادة التشخيص والتلبيس

هو فى طبيعة النرجسية يسهل عليه كما قدمنا أن يلبس ذاته لكلا الجنسين وأن يكون شاذاً فى حالة ومساوقاً للفطرة فى حالة ، وما كان على الفطرة فى الحالتين .

* * *

وتنطبق عليه لازمة العرض كما تنطبق عليه لازمة التلبيس والتشخيص ... ولعل لازمة العرض أظهر فيه ، لأنها من شأنها أن تتلمس وسائل الإظهار

فلم ينظم شعراً فى الخمريات أو الغزل أو المجون إلا تبين منه أن الجهر بالمحرمات أدنى إلى هواه من المتعة بالمحرمات

وإن قالوا حرام . قل حرام ولكن اللذاذة فى الحرام

وتكبر المتعة فى حسه وفى وصفه بمقدار المخالفة لا بمقدار المتعة والتذاذها فلا يتساوى شراء الخمر والفسوق بمال حلال وشراؤهما بمال حرام

واركب الآثام حتى يبعث الله الأناما
فلكم نلنا بدينا ر قمرناه غلاما
وشربنا يومنا ذا ك بباقيه مداما
لا نصرّف فى حرام أبداً ألا حراما

أو كما قال ، فيما نسب اليه ، ان الخمرة لا تشرب إلا بثمن خنزير مسروق

من زانية ... وكأنما ذمت نفسه وهو يذمت محبوبه الذى يقول فيه :

كطالبٍ مثـــلا قيـ ل خالف الناس تُذكر

ان كبَّرَ الناس غىٍّ وان تغنَّوا يكبر

ومن اللغو أن يبحث الباحث جداً عن مذهب أبى نواس فى الزندقة ، فليس له فى الزندقة مذهب غير « العرض والإظهار » ... وقد روى عنه انه انصرف من بعض المواخير سكران فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة فدخل فقـام فى الصف الأول ، فقرأ الأمام . قل يا أيها الـكافرون قال أبو نواس . لبيك ! فلما قضيت الصلاة لببوه وساقوه للحساب ... فأى مذهب من مذاهب الزندقة يسول لصاحبه هذا المجون . إنما هى آفة العبث بالمخالفة ولاشىء سواها يغريه بهذا السخف الذميم

ومن اللغو كذلك أن يقال كما قال بعض المستشرقين أنه كان يـكره الاشارة إلى الطلول فى مطالع القصائد ولعاً منه بالتجديد ونفوراً من القديم

فما كان ينعى على الشعراء بكاء الطلول الا لينعى من وراء ذلك معيشة البادية على أهلها أجمعين ، وبهـذه النزعة كان يكثر من التعريض بالعرب العدنانيين والفخر بالعرب القحطانيين ، ولم يكن له نسب ثابت فى هؤلاء ولاهؤلاء ، وقد كان من شعراء عصره من لهم نسب ثابت فى اليمن أو نسب ثابت فى الحجاز فلم يجعلوا هذا النسب هجّيراهم كما جعله أبو نواس .

وانما اغراه بالخبط فى هذا المعرض الشائك انه كان مسعر النار فى عصره ، وكانت النفوس تستثار به حيث لا تستثار بغيره . فقد طاح النزاع بين القبائل بالدولة الأموية وطاح هذا النزاع بالخليفة الأمين فى دولة العباسيين ، وخيفت العصبيات يومئذ أشد ماتخاف فى حقبة من الحقب ، ومن هنا كان أمر الخلفاء له بذكر الطلول كما قال :

دعانى إلى وصفُ الطلول مسلط لقد ضقت ذرعا ان اجوز له أمرا

ولم يكن هذا الأمر تأييدا منهم لمذهب من مذاهب الأدب على سواه ، ولكنه كان اتقاء للشغب وابعاداً لباب الخصومات والعصبيات ، ولو لم تكن المسألة مسألة عرض واظهار عند صاحبنا لما عناه هنا رأى الاقدمين ولا رأى المحدثين ، فقد كان ينحو فى الطرد والغزل والمدح والهجاء منحى الشعر القديم ويلهج بمحاكاته على نمط لم يؤثر عن أحد من نظرائه ومعاصريه .

ومن تغلغل هذه اللازمة فى خليقته — لازمة العرض والاظهار والتحدى بالمخالفة — انه جعل الصلاح نهديدا لإبليس فى قصيدته التى يقول منها :

لما جفانى الحبيب وامتنعت عنى الرسالات منه والخبر
واشتد شوقي فكاد يقتلنى ذكر حبيبى ، والحلم والفكر
دعوت ابليس ثم قلت له فى خلوة والدموع تنحدر :

أما ترى كيف قد بُليت وقد ... أفرح جفنى البكاء والسهر
إن أنت لم تلق لى المودة فى ... قلب حبيبى وأنت مقتدر
لاقلت شعراً ولا سمعت غناً ... ولا جرى فى مفاصلى السكر
ولا أزال القرآن أدرسه ... أروح فى درسه وابتكر
وألزم الصوم والصلاة ولا ... أزال دهرى بالخير أأتمر
فما مضت بعد ذاك ثالثةٌ ... حتى أتانى الحبيب يعتذر

إلى آخر القصيدة :

قال رزين الكاتب عن سبب نظمه لهذه القصيدة : « اجتمعنا يوماً وأبو نواس وعلى بن الخليل فى سوق الكرخ ، وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونتحدث بها ، فقال أبو نواس : أدبر من كان فى نفسى وكان أسرع الخلق إلى طاعتى ، فما أدرى ما أحتال له؟ فقال على ابن الخليل يمازحه : يا أبا على ! سل شيخك وأستاذك يعطفه عليك . فقال أبو نواس : من تعنى ؟ فقال : من أنت فى طاعته ليلك ونهارك ، يعنى ابليس ! فان لم يقض لك هذه الحاجة فما ينبغى لك أن تسأله مسألة ولا آن تقرعينه بمعصية فقال هو أسدّ لرأيه من آن يخل بى أو يخذلنى . . وانقضى مجلسنا ذلك . فلما كان بعد أيام اجتمعنا فى ذلك الموضع وأخذنا فى أحاديثنا « فضحك أبو نواس . . . فقلنا له : ما أضحكك ؟ قال : ذكرت قول على بن الخليل يومئذ : سل شيخك يعطفه عليك ... حينئذ قد سألته يا أبا الحسن فقضى الحاجة ، وما مضيت والله ثالثة حتى أتانى من غير أن أبعث إليه ومن غير أن استزيره ، فعاتبنى واسترضانى ، وكان

الغضب منى والتجنى . واحسب الشيخ — يعنى ابليس — كان يتسمع علينا فى وقت كلامنا » .

هذه هى القصة كما رواها رزين الكاتب لا يعنينا صحت روايته أو لم تصح ، فان القصيدة لأبى نواس لا تروى لأحد غيره ، ولولا دخيلة طبع مطوية على آفتها ولوازمها لقد كان اقتراح على بن الخليل خليقاً أن يوحى إلى أبى نواس أن يتوجه بالطلب إلى ابليس على غير ذلك الأسلوب ، ولكنه جرى على دأبه فصنع مع ابليس مايصنعه مع الناس ، فهو يتحدى الناس بالمعصية والفسوق ويتحدى ابليس بالصلاح والعفاف ، وهى اذن خلة واحدة ذات صفتين !

وتتمثل هذه الشهوة « النرجسية » شهوة المخالفة والمغايظة فى قصيدة أخرى صوّر فيها ابليس بصورة المتوسل إليه بغواياه ليختار منها مايحلو له وهو يأباها غواية بعد غواية ولا يزيد على أن يقول له « لا » من قبل المكايدة والمعاندة لا من قبيل الزهد والعفاف .

قال :

نمت إلى الصبح وابليس لى … فى كل مايؤثمنى خصم

رأيته فى الجو مستعلياً … ثم هوى يتبعه نجم

أراد للسمع استراقا فما … تم أن أهبطه الرّجم

فقال لى لما هوى . مرحباً … بتائب توبته وهم

هل لك فى عذراء ممكورة … يزينها صدر لها فخم

ووارد جثل (١) على متنها … أسود يحكى لونه الكرم

---

(١) أى شعر غزير .

AUC - LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

فقلت : لا . قال فتى أمردٌ يرتج منه كفل فعم
كأنه عذراء فى خدرها وليس فى لبته نظم
فقلت : لا قال فتى مسمع يحسن منه النقر والنغم
فقلت لا . قال ففى كل ما شابه ماقلت لك الحزم
ما إلا بالآيس من عودة منك على رغمك ، ياندم
لستُ أبا مرة إن لم تعد فغير ذا من فعلك الغشم

ولا يخطى القارىء فى هذه الابليسيات التى تروى لأبى نواس ، أو تروى عنه ، ماتحتويه من خبيثة التمثل بالوجاهة والامتياز والظهور بين الأقران ، فمما رواه والبة بن الحباب أستاذ أبى نواس إنه « كان نائماً وأبو نواس غلامه نائم إذ أتاه آت فى منامه فقال : أتدرى من هذا النائم إلى جانبك ؟ قال : لا ... قال هذا أشعر منك وأشعر من الجن والإنس أما والله لافتنّ بشعره الثقلين ولأغرّن به أهل الشرق والمغرب . قال : فعلمت انه ابليس فقلت له : فما عندك ؟ قال : عصيت ربى فى سجدة فأهلكنى ، ولو أمرنى أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت » .

ومن رضى أبى نواس أن يسجد ابليس له ولا يسجد لآدم ، أما والبة فحسبه أن يقول غلامى أبو نواس !

وقد كان من منافع ابليس فى مجون أبى نواس أنه يكفل له وجاهة التميز بالخمرة التى هو كفؤ لها دون عذاله ، فهو يخصه بها ويصرف عذاله عنها .

دعوت ابليس ثم قلت له لاتسق هذا الشراب عذالى

وما كل من يشرب الخمر نظير لأبي نواس :

فالخمر قد يشربها معشر ... ليسوا اذا عُدوا بأكفائها

وكثيراً ماتبدو شهوة الوجاهة والظهور في ولع أبي نواس يشرب الخمر كائناً ما كان نوعها . فهي فضلا عما تُخيّله لشاربها من العظمة والسلطان ليست مما يرتقي إلى «كفاءته» كل شارب وطالب ، وأبو نواس حين يشربها أجدر بشربها من أمم وآحاد ، وعلى لسانها يقول :

فاستوحشت وبكت في الدن قائلة ... يا أم ويحك ، أخشى النار واللهبا
فقلت لاتحذريه عندنا أبدا ... قالت: ولا الشمس؟ قلت الحر قد ذهبا
قالت: فمن خاطبي هذا ؟ فقلت أنا ... قالت فبعلي ؟ قلت الماء إن عذبا
قالت : لقاحي . فقلت الثلج ابرده ... قالت فبيتي ؟ فما استحسن الخشبا
قلت القناني والأقداح ولدها ... فرعون : قالت لقد هيجت لي طرباً
لاتمكنني من العربيد يشربني ... ولا اللئيم الذي إن شمني قطبا
ولا المجوس فان النار ربهم ... ولا اليهود ولا من يعبد الصُلبا
ولا السفال الذي لايستفيق ولا ... غر الشباب ولا من يجهل الأدبا
ولا الأراذل إلا من يوقرني ... من السقاة ، ولكن أسقني العربا
ياقهوة حُرّمت إلا على رجل ... أثرى فاتلف فيها المال والنشبا

ولم يكن عرضاً انه كان يدعي لها جلالة الشأن على الملوك ، ويعيد هذا المعنى كقوله :

ومدامة تحيا الملوك بها ... جلت مآثرها عن الوصف
ومدامة سجد الملوك لها ... باكرتها والديك قد صدحا

أو قوله :

ومدامة سجد الملوك لذكرها جلت عن التصريح بالأسماء

أو كقوله

صهباء فضلها الملوك على نظرائها لفضيلة القدم

وكذلك ترديد ذكر التاج عند ذكر سقاتها كما يقول :

نتجت من كرم كسرى قبل أبان النتاج

وغزال من بنى الأصـ ـفر معصوب بتاج

شخصه منى بعيد وهو منى كالمناجي

أو كما يقول :

لها تاج مرجان واكليل لؤلؤ ترنم كالنشوان بين العواشق

يدور بها ظبى غرير متوّج بتاج من الريحان ملاك القراطق

فان الخمر إداة صالحة للتدليل الذى يكمن فى أعماق « النرجسية » وحب أبى نواس لها حب للتدليل الذى لا تستغنى عنه طبيعة الافتتان بالذات أو توثين الذات ، ومن هذا التدليل هذا الترنم بالتاج والملك والامتياز بمقام للشرب لا يكافئه كل مقام ، وما كان هذا الشعور خبيئة عميقة فى نفس الشاعر « النرجسى » وحسب بل كان على طرف لسانه ، وكان أحيانا يلحى السكر فى سبيل أحلامه ، وهو لا يلتفت إلى مغزى مايقول . حيث قال :

وأصبحت ألحى السكر والسكر محسن ألا رب إحسان علىّ ثقيل

كفى حزنا ان الجواد مقتر عليه ، ولا معروف عند بخيل

سأبغى الغنى أما جليس خليفة يقوم سواء أو مخيف سبيل

بكل فتى لايستطار جفانه إذا نوّه الزحفان باسم قتيل
لنحمى مال الله من كل فاجر أخى بطنة للطيبات أكول

فها هنا حلم مستقل عن حلم الخمر ولكنه لاينفك عن لازمة «النرجسى» المدلل لنفسه ، ويكاد ينسى صاحبه - وهو من الساخرين - أنه عرضة للسخرية التى لا سخرية بعدها حين يتخيله القارىء نديماً لخليفة لا يقبل منادمته بغير شرط بل يشترط فيه «السواء» ... ثم يشرئب إلى عزة أكبر من هذه العزة فيزين له الحلم أنه قاطع سبيل مخيف ليجمع الغنائم وينفق خمسها فى سبيل الله ، ويحرمه على الولاة ذوى البطنة الذين يأكلون الطيبات . ولايغلط فيقول : ويشربون المحرمات .. فمثل هذا الغلط من أبى نواس غير معقول حتى فى الأحلام !

ونحسب أن القارىء قد اتضح من هذه الأمثل بين أنواع التفكير والاباحة ، ولاسيما إباحة « الشخصية العاتية » وإباحة « الشخصية النرجسية »

فالعاتى الذى يستبيح المحرمات يبطل التحريم والتحليل ولايعرفهما كما قال أبو الطيب فى وصف الأسد :

فى وحدة الرهبان إلا أنه لايعرف التحريم والتحليلا

ويود لو فرض على الناس حرامه وحلال شريعة يأخذهم بها وينزلها منزلة الشريعة التى درجوا عليها . أما الشخصية النرجسية فلا يلوح من عملها وقولها أنها تريد إبطال المحرمات . بل يلوح من كل أعمالها وأقوالها أنها على نقيض ذلك تريد أن تستبقى شيئاً محرماً لتستبيحه وأمراً ملزما لتنعم

بعصيانه ، وشأنها شأن الطفل المدلل الذى يُعطى هواه ويقيس هواه ودلاله بمقياس التجنى والحران ، والولع بما يمتنع والاعراض عما يبذل ويسهل مناله ، أو يستباح

والتدليل هنا هو قوام توثين النفس والشعور بهذا التوثين من الآخرين وغاية الهوى هنا فى الطفل المدلل أنه يكلف أهله مالا يوجد ويأبى ما هو موجود وميسور

وتلك هى الإباحية النرجسية التى تقترن بتوثين النفس وتدليلها ، ولا نموذج لها فى الأدب العربى أوفى لعوارضها ولوازمها من أبى نواس

***

أما « الإرتداد » وهو اللازمة الثالثة التى ذكرناها من لوازم النرجسية فهو الذى يعرف أحيانا باسم الصفات الثانوية وليس من طبيعته أن يظهر قبل المراهقة ، وربما تأخر إلى ما بعد المراهقة سنوات إلى أن توجد النوازع الجنسية التى لا تتأتى الإستجابة لها حين يكتفى النرجسى بتوثين نفسه ...

ويسمى الارتداد بالصفات الثانوية لأنه لا يبلغ مبلغ التشخيص والعرض فى ملازمة النرجسية ، ولأنه يأتى مرجوعا فى شخص واحد، ويأتى لهذا على ثلاث درجات .

« أولاها » توثين النفس .

و « ثانيتها » خلع الشخصية على إنسان آخر ، ومن المتعذر أن يكون هذا الإنسان نسخة مكررة من الشخصية النرجسية كما تهواها ففيها

لابد شيء من الاختلاف بالتحسين أو بالتقصير .

وثالثة الدرجات أن تعود الشخصية النرجسية فتستعير الملامح المختلفة وتتلبس بها وتحسبها من ملامحها وصفاتها ، وبخاصة اذا رأت أنها ناقصة فيها » .

ولا حاجة إلى استقصاء شواهد « الارتداد » فى شعر أبى نواس ، فكل ماوصف به أكفاء المنادمة والظرف وجعلهم من أقرانه لايخلو من هذا الارتداد ، وكان قريباً فى تداعى الخواطر — أو تداعى — الهواجس أن يرى أنه يشبه « حُسناً » اسماً ورسما إذ كان مفتوناً بطول قامتها وهو غير طويل :

طويلة خوط المتن عند قياسها ولى بالطويلات المتون ولوع

ويخطر على البال أن أكثر الصفات المرتدة إنما كانت من صفات المخلوع محمد الأمين ، ومن حبه إياه أنه كان صديق الخمر وإن كان ينهاه عنها لينفى عن سمعته قالة السوء .

بل قيل — وماهو بالخاطر البعيد — أن شغفه بالأمين انما كان شغف عاشق لاشغف تابع بمتبوع ، فما كان أبو نواس بالذى يبقى على ولائه بعد خلع الخليفة تشيعاً لرأى أو تعصبا لمذهب ، ويقول طائفة من الرواة أن أبيات الشاعر النونية التى يقول منها :

أصبحت صباً ولا أقول بمن من خوف من لايخاف من أحد

أن أنا فكرت فى هواى له أحسست رأسى قدطار عن جسدى

انما نظمها فى الأمين ، وأنه كان يشرب معه يوماً فنشط الأمين

للسباحة فليس ثياب ملاح ولبس غلامه كوثر مثل لباسه ووقعا فى البركة ونظر أبو نواس إلى بدن الأمين فرأى مالم ير مثله ، فلما كان من غد جاء الحسين بن المنذر مسلما عليه قال الحسين . فسألته عن خبره مع محمد فقال ويلك ! رأيت الفتنة وأنشد هذا الشعر . . . فقلت له ويحك . اتق الله فى رأسك ، فانه أن بلغه قتلك .

ولعل أبا نواس لم يحفظ للأمين من ذكراه ما هو أدنى إلى طبعه من معاقرته الخمر ومن مجونه وملاحته .

أأرفضها والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها

فاذا كانت لازمة « الارتداد النرجسى » بحاجة إلى مورد يستعير منه الشاعر ماليس عنده من الزينة الشخصية فليس احرى من الأمين أن يكون هذا المورد الرفيع ، مع ماتقدم من ولع الشاعر بترديد الزهو بسمات الملوك وزينة التاج والأكليل .

* * *

وخلاصة القول فى النرجسية أن أبا نواس كان من الشواذ فى تكوينه الجنسى ودوافعه النفسية ، ولكن شذوذه غير الشذوذ الذى اشتهر به وهو ايثاره الذكران على الأناث ، ولا بد من التفرقة بين الشذوذين لأن النرجسية تفسر أطوار أبى نواس جميعا والشذوذ الآخر لا يفسرها ، وهذا عدا ضرورة التفرقة بين الشذوذين للكشف عن بواطن السريرة وفهم الأخلاق الخاصة والأخلاق الاجتماعية .

فغرام أبى نواس بالجنسين وانحرافه مع بنى جنسه فاعلا ومتفعلا أمر

لايفسره إيثار الذكران على الأناث homosexuality ولكن النرجسية تفسره كل التفسير من جميع نواحيه .

والنرجسية تفسر الولع بالمجاهرة الاباحية ولكن الشذوذ الآخر لايفسرها . لأنه قلما يغرى صاحبه بالمجاهرة وكثيراً مايوحى إليه التخفى والاستتار ، وإذا تبذل فانما يتبذل لاعتقاده أنه أهون من أن يلفت الأنظار وأهون من أن يبالى الاهانة ، لا لأنه يعمل على لفت الأنظار والاستهانة بالام .

وقد تكون التفرقة هامة للعلاج النفسانى عدا هذا الاعتبار من جانب النقد والتاريخ . وستكون هامة للعلاج النفسانى لامحالة يوم تنكشف خصائص الغدد ومفرزاتها وعلاقتها بالأطوار الجنسية والنفسية ، فقد يصبح تعديل هذه المفرزات بالعلاج الجسدى ميسوراً كما يصبح ضرورياً لتقويم الأبدان والأفكار .

واعتقادنا فى أمثال هذه الدراسات أن المقارنة أفضل وسائل التمييز فيها ، وأن أفضل المقارنات ماكان بين المتباعدين فى البيئة والزمان ، فان التشابه بين أبناء البيئة الواحدة والزمن الواحد لاتميز الأضداد ، ولكننا إذا قارنا بين اثنين تفرقهما البيئة والزمان ثم رأينا علامات التشابه بينهما واضحة فهذا هو الدليل القاطع على فعل العلة التى يشتركان فيها .

وقد أسلفنا أن الشاعر العصرى أوسكار وايلد كبير الشبه بأبى نواس فى لوازم النرجسية ، وهما مختلفان بعدها فى كل شىء : فى الزمن والوطن واللغة والدين والطبقة الاجتماعية ، ولكنهما على هذا يتماثلان فى كل لازمة

من لوازم النرجسية ، ويختلفان فيكون اختلافهما أدل على وحدة المزاج .

ففى أوسكار وايلد نلقى الملامح الأنثوية وخصل الشعر المرسلة والصوت الذى تمازجه الرخامة .

وفيه نلقى حب الظهور ولفت الأنظار وشغل الأذهان ، ولم تكن مصطلحات التحليل النفسانى قد شاعت فى أيامه فلم يصفوه بحب العرض Exhidtionism كما كانوا يصفونه به لو عاش بعد زمنه بخمسين سنة ، ولكنهم أطلقوا عليه اصطلاح العرف الذى يقابل اصطلاح التحليل النفسانى فى تمام المقابلة ، وقالوا أنه نموذج حى للزهو المتبرج Dandyism ومنه جاءت كل بلواه .

وليس الزهو المتبرج كل ماهنالك ، بل هو الزهو الذى يصدم ويغضب كما قال صديقه اندريه جيد الأديب الفرنسى المعروف ، فى ذكرياته عنه ، وكان يتكلم بلغة عصره — لغة الثورة الفرنسية واعقابها — فيقول أن المستبدين ثلاثة : مستبد يطغى على الجسد ، ومستبد يطغى على النفس ، ومستبد يطغى عليهما معاً أما الأول فيسمونه الأمير ، وأما الثانى فيسمونه الحبر والكاهن ، وأما الثالث فيسمونه الرأى العام » .

وكانت لذته الكبرى أن يتحدى الرأى العام ، يثيره ، ويتغنى بفضائل الرذيلة أو الخطيئة ، ويكتب وهو يدافع عن الشاعر الفرنسى بودلير — زميله فى النرجسية — : « إن مايسمى الخطيئة عنصر جوهرى من عناصر التقدم تأسن الدنيا بغيره أو تشيخ او تنصل من كل لون ، فهى بما تنطوى عليه من التطلع تزيد تجارب النوع الإنسانى ، وهى بتوكيدها المزايا الفردية تنجينا من إرهاق القوالب المطردة » .

وقال : « ان الطيبة على المثال الذى تفهمه السوقة سهلة بيّنة . فكل ما تتطلبه مقدار من الذعر ونقص فى الفكر المتخيل ومعيار دارج من معايير كرامة المساتير .

أما الخطيئة العظمى عنده فهى البلادة ، وعلامات الحضارة عنده اثنتان : الثقافة والفساد .

وذهب إلى امريكا وعاد منها ينعى على قوم غاية البطولة فى عرفهم أن يكون الرجل على غرار واشنطون لايحسن أن يخلق لك كذبة واحدة .

وذهب إلى بلدة من بلاد افريقيا الشمالية التى يغشاها طلاب الفراغ وخرج منها وهو يقول لاندريه جيد : غاية منائى أن أكون قد نجحت فى إفساد هذه القرية .

وكتب ونظم وتحدث وعمل ليبشر بمذهب واحد يتكرر فى صيغ مختلفة وهو أن الفن والعلم متعزلان وينبغى أن ينعزلا فى مقاييس الأخلاق .

ومما يستوقف النظر غرام أوسكار وايلد بقصة نرجس فى الأساطير الاغريقية قبل أن يشتق منها النفسانيون اصطلاحهم على عادات تلك الآفة الجنسية أو النفسية ، فمن أحاديثه مع اندريه جيد أنه قال له ذات يوم بغير تمهيد : انك تصغى بعينيك . ولهذا أقص عليك القصة التالية :

« لما مات نرجس أصبحت بركته كأساً من الدمع المر بعد أن كانت من الماء الزلال ، وأقبلت عليها الأزهار باكية عسى أن تغنى لها وتغريها . فقلن لها حين رأين هذا : لاعجب أن تحزنى حزنك على نرجس ، فما كان أجمله وأحلاه

« فأجابت البركة : أو كان نرجس جميلا حلوا كما تصفنه !

« قالت الأزهار ومن ذا يعرف جماله ان لم تعرفيه ؟ لقد كان يمر بنا ولا ينظر إلينا ، ولـكنه كان ينحنى عليك ويدمن النظر إليك ، وفى مرآة مائك الجميل كان يستجلى بعينيه جماله هو فى تلك المرآة .

وعادت البركة تقول : « ولـكننى احببت نرجسا إذ كان ينحنى على حافتى وينظر إلىّ . لأننى كنت انظر إلى عينيه فأرى جمالى متجليا فى تينك العينين » .

وما كان وايلد إلا ناظراً فى أعماق سريرته حين لمح بواطن النرجسية فلم يلمحها فى نرجس وحده ، بل لمحها فى البركة معه ، فاذا هى نرجسية متقابلة بمرآتين .

هذه هى النسـخة العصرية من أبى نواس ، وتمامها أن أوسكار وايلد كان يتصل بالجنسين ، وكان متزوجاً وله ولدان .

وأتم من ذلك فى المشـابهة أن أوسكار وايلد لم يكن يدمن الخمر كما يدمنها أبو نواس . وهذا على دين التحدى بالاباحية هو المعقول . فان تحريم الخمر لم يبلغ فى مجتمع وايلد تلك الشـدة التى بلغها فى مجتمع أبى نواس ، فلا اثارة فى اعلان حبها هنا كالاثارة التى يتعمدها ابى نواس فى إعلان حبها هناك .

الجنس والنفس

أشرنا قبل ختام الفصل السابق إلى فعل الغدد فى التفرقة بين الأمزجة، وإلى آثارها المرجوة فى علاج أمراض النفس والجسد مع تقدم العلم بأسرار كل منها على حدة أو على التعاون بينها وبين الغدد الأخرى.

وكل ما عرفه العلماء حتى اليوم من الأسرار لا يعدو أن يكون مقدمة وجيزة من كتاب ضخم متعدد الأجزاء والأبواب، ولكنه على قلته يبدو كالخوارق التى لا تقبل التصديق لولا أنه محسوس مؤيد بالتجربة المتكررة، وسينجلى من أسراره مع الزمن ما يعلم المفكرين المتهجمين كثيراً من الأناة والروية قبل التهجم على الإنكار، فإن لدن استغربوا أسرار الروح بالأمس فأنكروها لغرابتها ليحارون اليوم بين تلك الغرابة وبين الغرابة التى تحيط بكل غدة من هذه الغدد فى عملها المفرد وعملها المرتبط بغيرها. إن أغرب الغرائب ليدخل فى حكم المألوف إذا قيس إلى هذه الغرائب، وهى كما أسلفنا لما تجاوز مقدمة الكتاب...

هذه الغدد تعمل معاً كالفرقة الموسيقية التى يعطى كل منها اللحن الذى يناسبه ويناسب آلات الفرقة بأجمعها..

بل هى فى تجاربها أدق من ذلك وأعجب. لأن الآلة الموسيقية إذا اختلت فى أداء لحنها لم تصلحه لها آلة أخرى. أما هذه الغدد فكل اختلال فيها تتصدى لإصلاحه غدة أخرى بعينها، وإذا اختلت غدتان فى وقت واحد تعاونت الغدد الأخرى على تعويض عملها، وبادرت كل واحدة منها

إلى أداء مهمة لم تكن تؤديها قبل ذلك ، ولا يقع الاختلاط بين هذه المهام المتقابلة ، أو المتناقضة فى بعض الأحوال ، إلا إذا كان الفساد قد عم البنية جميعها فلا يرجى لها صلاح

والمعروف من عملها حتى اليوم فى توجيه الجنس وتحويل الأحوال النفسية يهول العلماء بما يرونه اليوم وما ينتظرون غداً أن يروه ، ويحسب بعضه من الحقائق المقررة ويحسب بعضه الأكبر من الفروض والتأويلات ، بل من الظنون والتخمينات ، وهذه هى المرحلة الخطرة فى طريق هذا العلم الجديد . لأنها توجب الحذر والانتباه ، وقد يفوت الأوان إذا توغل الباحثون مندفعين وهم لا يحذرون ولا يتنبهون .

لقد مضت القرون الأولى ودراسة « الجنس » مهملة أو مسكوتاً عنها باتفاق العلماء والجهلاء على السواء ، وقد تواطأوا جميعاً على السكوت لأنهم لم يفلتوا بعد من أسر الطوطمية وتحريماتها ولا من وهم المتوهمين أن العلاقة الجنسية دنس معيب أو أنها وصمة مخجلة لمن يتحدث بها ولمن يسمعها ولمن يعنى بها ولو للعلم والعلاج .

ثم اندفع العصر الحديث من الحظر إلى الثرثرة بالجنس فى الدراسات وغير الدراسات ، وأوشك الخطر من الإفراط فى القول أن يضارع الخطر من الإفراط فى السكوت ، أو يزيد عليه .

وهذه كما أسلفنا مرحلة الحذر والانتباه ، يواجهها الباحث كما يواجهها القارىء والسامع ، وبخاصة حين نذكر أن كثيراً من البحث فى هذه المرحلة ضرب من الظن والتخمين .

ووسيلتنا نحن فى الحذر والانتباه ، أن نقسم أقوال الباحثين النفسانيين فى مسائل الجنس إلى قسمين : ملاحظات وتعليلات أو تخريجات

فأما الملاحظات فالكثير منها مقبول مقصور على الوقائع والمشاهدات .

وأما التعليلات فالكثير منها تخمين يجوز عليه ما يجوز على كل تخمين ، ولا استثناء فى هذا الحكم لمذهب أحد من المتخصصين أو غير المتخصصين ، فما اتفقت مدارس التحليل النفسانى على أساس واحد من أسس البواعث النفسية الكبرى ، فما الظن بغير الأسس من الفروع والتشاعيب ؟

وليس أشهر فى هذه المدارس النفسية وما إليها من مدارس فرويد Freud ويونج Jung وأدلر Adler ورانك Rank وسليفان Sullifan وهورنى horney وفروم Fromm وبرنزهورن Prinzhorn وهم أقطاب النفسانيين فى القارة الأوربية . ولا نذكر النفسانيين فى انجلترا وأمريكا لأن أقطابهم لا يتوسعون فى علم النفس « السيكلوجى » إلى التطبيق وتعليل الأخلاق على مثال المدارس الأوربية ، ولا سيما مدارس أوربة الوسطى ، وأعلى ما ترتفع إليه هذه المدارس عندهم أنها بمثابة المحاولات البوليسية للكشف عن الأمراض بدل الجرائم والجنايات

وإذا سألنا هذه المدارس عن الدافع الأكبر فى النفس الإنسانية فماذا نسمع ؟ أهو الجنس ؟ أهو تغليب الشخصية ؟ أهو الغريزة الاجتماعية ؟ أهو الدوافع الواعية ؟ أهو الدوافع غير الواعية ؟ وهل هى موروثة أو مكسوبة ؟ وهل هى قابلة للتعديل قبل الولادة أو بعد الولادة ؟

إن الجواب عن كل سؤال من هذه الأسئلة خمسة أجوبة أو ستة لا تتفق

مدرسة واحدة على أحدها كل الاتفاق ، فضلا عن الاتفاق عليها بين المدارس المتعددة . وربما ابتدأ الباحث منهم برأى فى تجاربه الأولى ثم عدل عنه إلى غيره فى تجربة لاحقة ، ولا يستطيع فى الحالتين أن يقول أنه يقرر « علماً » قاطعاً باليقين ، منزهاً عن ظنون التأويل والتخمين ، وربما اتفقوا على الاصطلاح كما تتفق مدرسة فرويد فيما بينها على اصطلاحات أستاذها التى يطلقها على دوافع الوعى الباطن ودوافع النزعة الحيوية ، من قبيل الايد Id واللبيد Libido والذات العليا Super - ego إلى أشباه هذه الاصطلاحات المخترعة . . . ثم يفسرونها ويشرحون محورها الذى تدور عليه فإذا هم أشتات متفرقة فى التصوير والتعليل ، ينقض أحدهم ما يثبته زميله ، وقد ينقضون جميعاً ما أثبته الأستاذ عند وضع الاصطلاح أو عند التصرف فيه بعد المراجعة .

وأولى الأقطاب النفسانيين بالحذر من تعليلاته وتعميماته هو رائدهم الأول سيجموند فرويد . وإنما كان الأولى بالمحاذرة لأنه الرائد الأول وفيه إلى جانب فضائل الرواد كل عيوب الارتياد ، ومنها الاقتحام .

فالفضل الذى يشكر عليه فرويد لا نزاع فيه بين مؤيديه ولا مخالفيه ، فقد دخل بالتحليل النفسانى إلى فى دور جديد لا يسبق إليه ، ولكنه وثب منه إلى تعليلات وتعميمات لا تستند إلى الوقائع والمعلومات ، وقد تبطلها وتفندها جميع الوقائع والمعلومات ، كدعواه الأخيرة عن إرادة الموت فى الانسان ، وأنها إرادة كامنة فيه كإرادة الحياة .

وقد بدأ فرويد علمه بالعلاج الطبى ، ثم عكف على دراسة الأعصاب

وانتقل منها إلى دراسة الحالات النفسية وهو فى نحو السادسة والثلاثين ، ثم بنى فلسفته فى مسائل الجنس النفسانية على أحوال العلاج أو على حجرة الاستشارة Consulting Room كما يقول ناقدوه .

وكان أستاذه فى طب العلاج النفسانى الدكتور بروير Breuer الذى نقل هذا الطب من تجارب التنويم المغناطيسى وشعوذاته إلى الأيحاء البرىء من الشعوذة ، وكان معوّله الأول فى علاجه على قاعدة « التسرية » أو رد الفعل التمثيلى Abreaction وهى تتلخص فى البحث عن الصدمة العصبية التى أحدثت المرض ثم إعادة تمثيلها للمريض بحيث يشعر بمنشأ العلة فى نفسه ، وقد استمد هذا العلاج من الراحة التى يشعر بها الأنسان إذا رأى شكواه النفسية ممثلة فى قصة يقرأها أو ينظر إليها على المسرح ، فأصاب فى الملاحظة ولم يتوسع فى القياس .

ولكن فرويد زاد على الصدمة العصبية التى يعرفها المريض أنه بحث عن صدمات الوعى الباطن والصدمات التى لا يعيها أحد ، فكان على بر الأمان وهو يتتبع الأعراض المرضية فى كل مريض على انفراد ، ولكنه لم يلبث أن وثب من حجرة الاستشارة إلى العالم بأسره وإلى النوع الإنسانى من أبعد نشأته ، بل إلى الكيان الحيوانى ومن ورائه الكيان المادى الذى يخبط فيه فلاسفة ما وراء الطبيعة ولا يحسبونه فى علم التجربة والمشاهدة ، ولا يستخرجون منه علاج الأبدان والأخلاق

وحسبك حذرا من تعليلاته وتعميماته أنها تجعل الشذوذ أساس الحياة الإنسانية ، فكل إنسان مصاب بعقدة الأدب أو عقدة «أوديب» المكبوته ،

وكل إنسان عرضة من جراء هذه العقدة للقلق فى بيئته النفسية وعلاقاته الخارجية ، وليست العقائد والشعائر والعبادات والفنون إلا تعبيراً عن هذا القلق أو دفاعا من النفس أمام طغيانه فى داخلها وخارجها

وعقدة أوديب هذه ما هى ؟ وفى أى عصر كان الإنسان الهمجى براء من كبتها ؟

ان عقدة أوديب Edipus Complex هى غيرة الابن من أبيه على أمه وتقابلها عند المرأة عقدة الكترا Electra وهى غيرة البنت من أمها على أبيها، ويقول فرويد أن هذه العقدة ترجع إلى أيام قيادة القطيع ثم قيادة العشيرة ثم كعائلة العائلة ، وفى هذه الأدوار يوجد ذكر واحد ـ وهو الأب ـ مستأثرا بجميع الأناث فى القطيع أو العشيرة أو العائلة ، وتنجم نزعات الانحراف الجنسى بين سائر الذكور ، كما تنجم بينها المؤامرة على قتل الأب تخلصا من احتكاره للأناث

هل شوهدت حالة من حالات الجماعات الإنسان كانت سابقة لهذا الكبت المزعوم ؟ هل توجه الآن حالة كهذه بين الجماعات الهجمية التى تقاس عليها الجماعات البدائية فى الأزمنة السحيقة ؟ وإن كان هذا التطور معرقا فى القدم فكيف عرفناه ؟ هل وجد بين جماعات الحيوانات مثال لهذه النوازع يتأتى لنا أن نشاهد ما يقاس عليه ؟

من المحقق أن كل ما شوهد ويشاهد من أطوار الجماعات الإنسانية أو الحيوانية لايسمح بهذه الوثبة الطويلة العريضة فى التعليل والتعميم

على أن الوثبة الطويلة العريضة لم تقف عند أطوار الإنسان الأول أو

الحيوان الأعجم ، بل جاوزتها بعيداً جداً إلى ما وراءها ، فاستخرجت من أطوار المادة « غير العضوية » ما يسميه فرويد غريزة الموت ويكاد يحصر فيه كل دفعة لا تحتويها الغرائز الجنسية

ففي طوية الإنسان – على رأي فرويد – دوافع ضارة به تهيء له طريق الموت من حيث لا يشعر ولا يريد ، ومرجع هذه الدوافع حنين المادة في كيانه إلى حالتها الأولى قبل الحياة !

هذا ضرب من التعليلات التي تنقض الحس والعلم والمشاهدة ، ولا يعززها اللفظ في عبارة فرويد نفسها إذا أراد أن نفهم من اللفظ أصدق معانيه

فهل فارقت المادة في الجسم الحي شيئا من خصائصها « غير العضوية » حتى يقال أنها تحن إلى معاودته ، وأن حنينها إلى معاودته هو الذي يسمى بغريزة الموت... هل فارقت قانون الجاذبية ؟ هل فارقت قوانين اللون والاضاءة ؟ هل فارقت قانونا واحدا من قوانين الطاقة سواء نظرنا إلى الطاقة الحيوية كأنها طاقة مادية أو طاقة روحانية ؟

الواقع أن المادة تحافظ على خصائصها هذه مع قوة الحياة كما تحافظ عليها مع كل قوة ، وينبغي أن يقال إذن أن غريزة الموت تعم السكون كله ما دامت المادة هذه المقاومة أو هذا القصور بالذاتي مع كل طاقة من أين جاءت الطاقة التي لا تحتويها المادة ؟ وإلى أين ننتهي إذا نحن ذهبنا نتخبط في هذه التعليلات والتعميمات

أننا لا نستطيع في هذا العصر ان نصف المادة حتى « بالقصور الذاتي » الذي يعزلها عن الطاقة ، ولا نستطيع أن نقول أنها ذات طاقة تريد مالا نريده

الحياة، ولو كان معنى الارادة المقصود أنها تطيع قانونا لافكاك لها من طاعته فلا نستطيع أن نفهم غريزة الموت على أى معنى من معانى فرويد ومدرسته وكل معنى نفهمه قد يصدق على المادة التى تحيط بالجسم الحى والمادة التى تكمن فيه

* * *

أقل ما يقال عن هذه التعليلات والتعميمات أنها لم تثبت حتى يسوغ لنا أن نثبت ما يقوم عليها ، وغاية ما تنتهى إليه أنها خواطر موحية تومئ إلى مواضع البحث والمناقشة ، وتتفرق إلى كل مفترق حتى يختار منها الناقد ما هو أحرى بالأتباع

فمن أراد أن ينظر فيها على أمان فلينظر إليها كأنها ضرب من الحدس لا يزال يتردد بين الأعتراض والاحتمال ، وليأخذ به على حسب اقترابه من المعونة العلمية فى تجارب الغدد وتطور الوظائف الجنسية

ونسميها المعرفة العلمية عمدا للتمييز بينها وبين العلم المقرر ، إذ لم نبلغ المعروف بالغدد وتطور الجنس مرتبة العلم المقرر الذى تتفق عليه جميع المذاهب وتتساوى تجاربه فى كل حالة ، وليس من السهل أن يرتقى إلى هذه المرتبة فى مدى هذه السنوات القصار ، لأنه متعلق بحياة الحيوان والانسان ولا يسهل ضبط الملاحظات على نمط واحد فى جميع الأحياء

ومن المعرفة العلمية العامة أن الغدد الصماء وثيقة العلاقة بتكوين الجسم وتكوين وظائفه الجنسية على الخصوص ، وهى الغدة النخامية والغدة الصنوبرية فى الدماغ ، والغدتان الدرقيتان والشبيهتان بالدرقيتين فى الرقبة ،

والغدتان السمتريتان فى أعلى الصدر ، والغدتان الكظريتان فوق الكليتين ، والخصيتان فى الرجل والمبيضان فى المرأة

وليس من غرضنا فى هذا السياق أن نتوسع فى شرحها وبسط وظائفها وإنما نكتفى بالمعلومات الحديثة عن كل منهـا فيما يتعلق بالوظائف الجنسية والأطوار العاطفية أو النفسية

فقد كان المنظور قبل هذه الكشوف أن الخصيتين والمبيضين هى العدد الجنسية دون غيرها فى جسم الرجل والمرأة .

فتبين بعد مراقبة الإنسان وإجراء التجارب الكثيرة على الحيوان أن الغدة النخامية ذات أثر كبير فى تكوين خصائص الحى ومنها خصائص الرجولة والأنوثة .

فالخصية تفرز الخلايا المنوية والخلايا البينية Interstitial المعروفة باسم خلايا ليدج Leydig وهى التى ترتبط بها صفات الرجل الثانوية ، فيشبه الرجال فى بعض الصفات ويشبه النساء فى صفات أخرى على حسب إفراز الخلايا البينية (١) . وهى تتلقى التنبيه بافراز من الغدة النخامية وتتوقف سلامتها على سلامة هذه الغدة .

وتبين من تجارب الدكتور ستيناخ Steinack أن وقف الخلايا المنوية يضاعف إفراز الخلايا البينية ويجدد الحيوية

ومن تجارب الأستاذ زوكرمان Zuckerman أستاذ التشريح بجامعة

---

(١) كتاب الغدد الصماء Endocrinology تأليف ورنر Werner

ربنجهام أن الطيور وسائر الحيوانات التى يراد تأخير مواسم الولادة عندها تتغير مواسم الحمل عندها بمقدار ما تتعرض له من النور ، وأن التجارب المتكررة أظهرت أن هـذا التأثير يسرى من غددها النخاميـة إلى غددها التناسلية ، وينقطع أثره فى الأحيان التى تستأصل الغدة النخامية منها

وإذا أفرط عمل الغدة النخامية تضخم الجسم وأصـابه المرض الذى يسمى بمرض الإفراط النخامى Hyper-pituit arism فتطول العظام وتمتد القامة نحو ثمانى أقدام .

وتتعاون الغدة الدرقية والغدة السمترية على إنماء الجسم إلى سن المراهقة ولـكن الغدة الدرقية موكلة بنمو التطور والغدة السمترية موكلة بنمو الحجم والبدانة . فاذا حقنت الشغدع (فرخ الضفدع) بافراز الغـدة السمترية كبرت وتضخمت وهى على شكلها ، فاذا حقنت بافراز الغدة الدرقية تطورت وتحولت إلى ضفدع وهى على حجمها .

ويحدث عند ضمور الغدة الدرقيـة أو إزالتها مرض التوقف العقلى والبدنى Cretinism فلا يتقدم المصاب به من حالة الطفولة العقلية أو الجسدية

ويفهم من هذا أن النمو مرتبط بالغدد جميعها ولا يرتبط بالغدد الجنسية أو التناسلية وحدها

ولابد من استمرار الغدة الدرقيه فى أداء وظيفتها قبل المراهقـة وبعد البلوغ وتمام النضج فى الجنسين . أما الغدتان السمترية والصنوبرية فتنموان إلى سن المراهقة ، ثم تسلمان الجسم إلى عمل الغدة التناسلية التى تبدأ فى تلك السن وظيفتها المولدة .

وشوهد فعل الغدة الكظرية فى الصفات الجنسية ، فتبين أن الطفل الذى تختل غدته الكظرية قبل الولادة يصاب بحالة شبيهة بحال الجنس المتكل Pseudo - hermophroditsm الذى يتميز فيه الجنسان ببعض الصعوبة

أما إذا اعتراه الخلل بعد الولادة فقد تتميز فيه صفات الجنس وتصاحبها سرعة المراهقة ، فتظهر ملامح الذكورة أو الأنوثة فى الخامسة أو السادسة

وقد تصاب الغدة بعد سن المراهقة فينبت الشعر على جسم المرأة ويغلظ صوتها وتشتد عضلاتها

وقد بسط بروستر Broster فى كتابه « غلاف الغدة الكظرية » adrenal Cortex أحوال نحو عشرين فتاة أصبن فى غلاف غدتهن الكظرية فغلظت أصواتهن وتغطت بطونهن بالشعر وأشبه النظر عندهن شكل الذكر الصغير ، ولا يلزم فى جميع هذه الأحوال أن تتغير أطوارهن الأنثوية ، وقد يشفى غلاف الغدة ويخف ورمه فتزول هذه الأعراض وتعود الفتاة إلى أنوثتها

ويشاهد على وجه التقريب أن العواطف والأحاسيس ترتبط بأعمال الغدة الكظرية ، وان أعمال الدماغ ترتبط بالغدة الدرقية ، وأن تكوين العضل يرتبط بالغدة النخامية

أما الغدة الصنوبرية فعملها مهم جداً ولكنه لم يتميز من عمل الجزء المقارب لها من الدماغ Hypothal mus فلا يتيسر الآن على سبيل اليقين أن يعرف أى هذه الآثار من فعلها وأيها من فعل الدماغ كله .

ويذكر للفيلسوف ديكارث على سبيل الإعجاب ببداهته الفلسفية

أنه أدرك شأن هذه الغدة قبل ثلاثة قرون ويخطر له أنها مركز القوة الروحية وعزز هذا الخاطر عنده أنه رآها الغدة المفردة دون غيرها بين غدد الجسم كله ، ويعترض عليه المحدثون بانفراد الغدة النخامية ، فيرد عليهم أنصاره مشيرين إلى انقسام الغدة النخامية كأنها غدتان ... !

***

وكل غدة من هذه الغدد الصماء تفرز فى الدم مباشرة مادة خاصة بها يطلق عليها إسم الهرمون من كلمة هرماو Hormao اليونانية بمعنى التنبيه أو التحريض ، وكل هرمون من هذه الهرمونات يؤثر فى الهرمونات الأخرى ويتأثر بها ، ولا ينحصر تأثيره فى مفردات الغدد الصماء دون غيرها بل يسرى إلى الغدد الأخرى للتعاون تارة والمقاومة أو التعويض تارة أخرى وقد لاحظ الأستاذ هوسى Houssay من بونيس إيريس بالارجنتين أنه عند استئصال البنكرياس والغدة النخامية معا من جسم الحيوان لا تنشأ من إزالتهما الإصابة بمرض السكر كما تنشأ من إزالة البنكرياس وحده (١) ولوحظ مثل هذا التجاوب بين الغدد التى تفرز هرموناتها فى الدم مباشرة كالصماء أو تفرزها بالواسطة كالغدد الأخرى .

ودلت مراقبة التوالد فى الكائنات الحية على أن هذه الغدد تبدأ فى الظهور مع انقسام الجنسين ، ولا تتميز خصائصها كل التميز فى أنواع الأحياء التى تميزت فيها الذكورة والأنوثة

---

(١) الغدد التى فى داخلنا تأليف جون ابلنج The glands Inside us by John Ebling

وهنا ينبغى أن نذكر أن الأحياء توالدت قبل أن يكون فيها جنسان متميزان .

فالأميبيا Amoeba مثلا . وهى حيوان من خلية واحدة ـ تتوالد بالانقسام ، فتنشق الخلية شقين ينمو كل منهما حتى يستوفى نموه ثم ينشق مثل هذا الانشقاق

ويتم التوالد فى احياء أرقى منها بالنتوء أو الأزهار نشبيها له بنتوء الكم من فرع الشجرة فاذا أدرك الحيوان سن الولادة شوهد على ظاهرة نتوء يكبر حتى ينفصل ويستقل بكياته ، ويجرى السؤال على هذا النمو فى الأحياء التى تتعدد خلاياها ومنها بعض ديدان الماء والطحالب .

ويتم التوالد فى أحياء أرقى من الطحالب بالطريقة الجرثومية Polysporogonia أى بانعزال بعض الخلايا داخل الجسم وتطورها حتى تشابه جرثومتها الأصيلة ، ثم تخرج من جسم الحيوان الجنين من الرحم ، وتأخذ فى النمو ثم التوالد على هذا المثال ، والحيوانات المرجانية والدودة المتشعبة من هذا القبيل .

ويلى هذا التوالد الجرثومى توالد متوسط بين هذه الطريقة وطريقة الحيوان ذى الجنسين ، وتسمى البوغية أو الغبارية Sporogonia ويجرى التوالد فيها بانعزال خلية واحدة من الجسم تبدأ بالنمو بعد انعزالها وتتعدد خلاياها وهى فى جسم واحد حتى تشابه أصلها الذى نشأت فيه ، وهذه الطريقة شائعة فى بعض الفصائل من النباتات السفلى .

ويلى الطريقة البوغية طريقة تسمى بالتوالد العذرى Parthenogenesis

ويكاد يحسبها بعضهم نكسة من طريقة أرقى منها .

فتتولد من الحيوان جرثومة قابلة للنمو بغير تلقيح ؛ وهى نفسها قد تلقح فيختلف النتاج . كما يحدث فى جراثيم النحل الذى تنمو خلاياه غير الملقحة فتصبح ذكوراً وتنمو خلاياه الملقحة فتصبح إناثاً ، ولا يبقى النوع بغير هاتين الطريقتين .

ومن الأحياء الطفيلية مايجمع بين الذكورة والأنوثة ، ومنها مايجرى التلاقح فيه بين حيوانين كل منها لاقح وملقوح ، كالدودة التى تسمى دودة الأرض Earthworm والقوقعة الحلزونية Snail وأعلى من هذه الطبقة قليلا حيوانات تتناوب الذكورة والأنوثة موسماً بعد موسم ، فالمحار Oyster أنثى ويصبح ذكراً فى موسم تال ، وقد يرتد إلى الأنوثة فى موسم يليه .

والطبقة التى تعلو على هذه الطبقة هى طبقة التوالد من جنسين يستقل كل منهما بوظيفة لايؤديها الجنس الآخر . والمسافة شاسعة جداً بين أدنى الحيوانات من هذه الطبقة وبين الانسان ، ولكن الانسان مع هذا لايزال محتفظا فى كيانه بأصول التولد فى طبقات الأحياء ، ويوجد فى شبك المبيض مثلا جزء كخصية الرجل ولا يقال فيه أنه الجزء المقابل للخصية وحسب ، ويصح أن يقال بعبارة أخرى أن كل أنثى تطرى فى لباب المبيض «مشروع» خصية (١) قد ينمو حتى يعمل عمل الخصية فى الذكور ويغير أطوار المرأة فى صفات الجنس الثانوية .

---

(١) تقرير نوفاك ولونج عن أورام المبيض وعلاقتها بالتغيرات الجنسية الثانوية
Ovarian Tumours Associated with Secondary Sex Changes by Novak And Long .

ويؤخذ من شواهد متكررة أن مبيض الأنثى يفرز الهرمون الذكر المسمى بالاندروجين androgen كما يفرز الهرمون المؤنث المسمى بالاستروجين Œstrogen . ومن التجارب فى الحيوان أن الدجاجة التى يستأصل مبيضها يضمر عرفها ولا تعود إلى النمو الطبيعى إلا إذا ألقحت بالاوندروجين دون الاوستروجين ، مما يفيد أن مبيض الدجاجة لاغنى له عن افراز الاندروجين لاستقامة كيانها .

ويحتاج الذكر كما هو معلوم إلى وقت للنضج واستيفاء كيان الرجولة أطول من الوقت الذى تحتاج إليه المرأة ، فينضج الشاب فى نحو العشرين وتنضج الشابة فى نحو الثانية عشرة ، فاذا ألقح الحيوان بهرمون المرأة — أى الاستروجين — بكر نضجه والتحمت كراديس جمجمته epiphyses قبل الأوان .

والمعلوم أن الذكر فى الحيوانات الفقارية أجسم من الأنثى ، فاذا خصى الذكر والأنثى من صغار الحيوانات فالخصى يعطل نمو الذكر ويعجل نمو الأنثى ، كأنما هرمون الأنثى يعطل النمو فاذا غاب نما الجسم وإذا بقى ابطأ نموه . ويجرى العلماء هذه التجربة على نحو آخر . إذ يلقحون ذكور الجرذان وأناثها بالاستروجين فيتعطل نمو الذكور والأناث(١) .

كذلك يحدث تضخم البروستاتة فى الشيخوخة لنقص افراز هرمون الذكر — أى الاندروجين ، وزيادة إفراز هرمون الأنثى أى الاستروجين .

---

(١) الغدد التى فى داخلنا تأليف جون ابلنج The Glands inside us by John Ebling

ويشاهد على الأغلب ان أثر الأندروجين فى عموم الجسم أقوى من من أثره فى جهاز التناسل مباشرة ، فإذا نقص نقصت فى الرجل صفات الذكورة الثانوية وإن لم يضعف جهازه التناسلى ، فتغلب عليه بعض أطوار الأنوثة ولا تتعطل قدرته على التوليد .

ومن هذه المشاهدات المتكررة يجنح ذوو التجارب إلى القول بأن غياب أطوار الرجولة يبرز أطوار الأنوثة ولا يحدث عكس ذلك أى أن غياب أطوار الأنوثة لا يعطى الرجل صفات جنسه النفسية أو الجسدية .

وأياً كان مقطع الرأى فى هذه التجارب فالثابت من أطوار الصبغيات والتناسلات أن أنوثة الجنين مطردة حيث يغيب الصبغى الذى ينفرد الذكر بإفرازه ، وأنه حيث يوجد هذا الصبغى يكون الجنين ذكراً على الدوام .

ثمن عجائب الخلقة أن الخلايا المولدة التى تصل إلى رحم المرأة تبلغ نحو مائتى مليون خلية . كل خلية منها تحتوى أربعة وعشرين صبغياً وكلها متشابهة إلا بعض صبغيات الذكر ، فإن الصبغى الرابع والعشرين منها يشتمل على خلية واحدة ذات جزئين مختلفين ، ولا يأتى هذا الاختلاف إلا على النسبة التى يتعادل بها عدد الذكور وعدد الإناث فى النوع الإنسانى بوجه التقريب .

وأعجب من ذلك أن هذا الصبغى chromosoms يعين جنس المولود ولكنه لا يعين الطبائع الموروثة ، بل يرجع توريث هذه الطبائع إلى التناسلات genes فتنتقل إلى بعض الذرية ولا تنتقل إلى بعضها ، لأن التناسلات تتزاوج وتتلاقى تناسلات الأب وتناسلات الأم . ويختلف الولدان

من ثم فى الذرية الواحدة ولا يندر أن يكون الذكر وارثاً لصفات أمه وأن تكون الأنثى وارثة لصفات أبيها ، بل لا يندر أن تكون الصفات الموروثة منقولة من الأجداد والأسلاف : صفة من الجد الأبوى وصفة من الجد الأموى ، وكلتا الصفتين قد خفيتا فى الأب والأم على السواء .

وكثيراً ما يرث الولد استعداداً تحول البيئة دون ظهوره ، ولكنه لايكسب فى البيئة خلقاً لم يكن على استعداد له بتكوينه .

وقد تقدم أن الصبغيات فى النوع الانسانى أربعة وعشرون ، أحدها هو الذى يعين الجنس فينمو الجنين ذكراً أو أنثى على حسبه ، ويبقى ثلاثة وعشرون صبغيا تعمل فى تكوين الجنين ، وهذه الحقيقة يبنى عليها بعض العلماء رأياً قويا فى تعليل الوراثة المختلفة ، ويسمون هذه الصبغيات بالمستقلة أو الذاتية autosomes تميزاً لها من الصبغى المختص بتمييز جنس المولود ، ولم ينكشف بعد من مراقبة مواليد الإنسان ما يكفى للجزم برأى فى علاقة هذه الصبغيات الثلاثة والعشرين بوراثة الأخلاق والمزايا ، لأن التجارب على الحيوان لاتصلح للقياس عليها .

ولكن العلماء يتابعون البحث على هذه الخطوط الواسعة أملا فى الوصول إلى تعيين على الصبغيات جميعا فى نقل الأخلاق والخلال الموروثة ، وهو بحث عويص محفوف بالمجازفات والصعوبات ، ندرك شيئاً من صعوباته كلما أحضرنا فى خلدنا دقة الناسلة التى تُعد بمئات الملايين فى إفراز المدة الواحدة ، وتحمل فيها ماظهر وما خفى من خلائق الآباء والأجداد من طرف الأبوة والأمومة إلى أجيال لاندرك أولها فى القدم ولا نهايتها فى المستقبل . ومن

المجازفة الشديدة أن يتصدى أحد — بالغا مابلغ علمه — لمحاولة التعديل فى مثل هذه الناسلة الدقيقة حتى يمحو منها خلقا أو يسويه من عوج إلى اعتدال

* * *

وبعد فهذه مجالة توخينا الالمام فيها بما هو ضرورى من المعارف العلمية من أعمال الغدد وتطور الوظائف الجنسية ، فما هى النتيجة التى تنتهى إليها ؟

أنها لاتنتهى بأية حال إلى تهوين الفوارق بين الجنسين ولا إلى زعم الزاعم أن الإنسان مزدوج الجنسين Bisexual مختلط الذكورة والأنوثة بطبيعته ، وأن الشذوذ الجنسى فيه فطرة عامة تتخذ أطوارها على حسب العمر من الطفولة إلى تمام النمو فى الجنسين ، كما يقول فرويد ومتبعوه أن النتيجة التى تنتهى إليها بحوث المختصين بتطور الجنس لاتنتهى إلى هذه النتيجة ، بل تنتهى إلى نتيجة تناقضها . وهى أن الفوارق بين الجنسين تتعدد وتتوزع وتتشعب حتى لايكفى لتبينها جهاز التناسل وحده ولابد معه من دلائل أخرى تنطوى فيها وظائف الغدد وسائر أطوار البنية

وإذا كانت هذه الخصائص لاتتوافر جميعا فى بنية واحدة فهذا شأن جميع الخصائص فى كل تركيب من تراكيب الأحياء أو الجماد فلا يوجد انسانان ولا شجرتان ولاحجران على مثال واحد ، ولا يلزم من عموم المادة الكربونية مثلا أن الفحم والماس والسكر أشباه لافوارق بينها فى جميع المزايا والقيم والأغراض .

وللنوع الانسانى ولاشك خصال عامة يشترك فيها الجنسان ولكن

التطور الجنسى لم يتقدم هذا التقدم ليتشابه الجنسان فى النهاية وانما تقدم الجنس لتظهر بينهما الفوارق اللازمة ، ويبقى كل منهما بعد ذلك انسانا فيما عدا هذه الفوارق لانها لاتخرج الذكر فى انسانيته ولا تخرج الأنثى من انسانيتها ولن يكون النوع الذى ينتميان اليه نوعا واحدا إذا اختلفا فى كل شىء.

وقد وجدت حالات من الشذوذ الجنسى لاشأن لها بالخصائص الموروثة ومرجعها كلها إلى العوارض الاجتماعية أى العوارض التى تطرأ بعد الولادة .

فالذين راقبوا الشذوذ الجنسى فى الحيوانات وجدوا انه يعرض للقردة والكلاب وبعض الطيور كالحمام. ولكنه لايعرض لها إلا فى غيبة الأناث وحين يتربى الذكور من هذه الحيوانات فى مكان واحد تنعزل فيه ولا تظل على شذوذها بعد اختلاطها باناثها .

والذين راقبوا الشذوذ الجنسى فى القبائل البدائية وجدوا كذلك أنه يعرض للماشئين وهم منعزلون فى المزارع والغابات ، ثم يتعقبونه بالسخرية والاشمئزاز (١)

وهذه هى العوارض التى يتخذها بعضهم شاهدا على النزعة الفطرية فى الشذوذ الجنسى لأن الحيوانات والهمج يباشرونه كأنما كانت استقامة الفطرة وقفا على الحيوان والهمج المنخلفين عن المدنية

---

(١) النمو فى غابة الجديدة تأليف مرجريت مين Growrng up in New Guinea

وقد درست فى عواصم المدنية أحوال الشواذ المحترفين فلم يوجد بمعظمهم شذوذ فى تكوين البنية ، ودلت دراستهم وفحصهم على أنهم يحترفون البغاء طمعاً فى الكسب ولا ينقادون للغواية بدافع فطرى من النزوة الجنسية .

وتفعل البواعث النفسية فعلها فى حالات شتى من الشذوذ الجنسى الذى لايقبل التعليل بغيرها ولا يتأتى خلوه منها ، إذ لايخفى أن الصلة بين الرجل والمرأة لاتقوم على الوظيفة التناسلية بمفردها ، بل تسبقها فى المجتمعات المتحضرة ومجتمعات البداوة أحياناً أشواق نفسية ومطالب اجتماعية ، فيجوز أن يكون الرجل سليم البنية ولكنه لايروق المرأة ولايثير شعورها أو يستولى على عواطفها ، ويجوز أنه يشعر بذلك فيحجم عن طلب المرأة هرباً من المهانة وألم الخيبة ، ويجوز أن يحس من نفسه ضعفاً فيتجنب الصلة التى تخجله أمام شريكته ، ويجوز أن ينفر من امرأة واحدة ذات شأن عنده ، أو ينفر من امرأة واحدة أضرته واحتقرها أو احتقرته فيسحب احتقاره على جميع بنات جنسها ، ويجوز أمثال ذلك كثير من علل الشذوذ الجنسى الذى ينفّر صاحبه من المرأة ولا يمكن أن يخلو من البواعث النفسية .

فاذا قيل مثلا إن الناشىء الذى نقصت وظائف الرجولة عنده يتشبه بالنساء وينقاد لشهوات الرجال ، أو قيل أن الناشئة التى جارت فيها هرمونات الذكورة على هرمونات الأنوثة تتشبه بالرجال وتتعشق بنات

جنسها ، فكيف يمكن أن نعلل بعلة الهرمونات حالة الماشى الذى لا يحب المرأة ولا يميل بعاطفته الجنسية إلى غير أبناء جنسه ؟ ان زيادة الهرمونات المذكرة خليقة ان تصرفه إلى الأفراط فى حب الأناث ، وأن نقصها خليق أن يلحقه بالمتأنثين : أما الرغبة الجنسية التى تقيد الرجل بأبناء جنسه فليس لها تعليل معقول من فعل الهرمونات ولا بد من الرجوع بها إلى الحالات النفسية والعادات العارضة ، سواء نشأت من ظروف المجتمع أو من البيئة المنزلية فى نطاقها المحدود .

وقد أحصى هرشفيلد Hirchfeld وستيكل Stekel وسيتفاخ Steinach وغيرهم حالات كثيرة يعزى النفور فيها من المرأة إلى علل نفسية ولا ارتباط لها بفعل الهرمونات وما إليها .

إحدى هذه الحالات حالة فتى كان يحب أمه حب العبادة ثم ماتت فوقع فى صندوقها على رزمة من الأوراق قرأها فوجد أنها رسائل غرامية ، وعلم منها أن أمه كانت تخون أباه وتخون عشاقها وأنهم كانوا يتبذلون فى الكتابة إليها عن أفانين الرذيلة التى كانوا يقترفونها معها ويستعيدون ذكراها

وإحدى هذه الحالات حالة فتى أصابه مرض من امرأة يهواها ، وغيرها حالة فتى أذلته فتاة وصدمته فى كبريائه فجعل يتمثلها فى كل فرد من بنات جنسها ، وأشباه ذلك حالات تحصى بالمئات .

فمن السخف أن يقال — اعتماداً على المعرفة العلمية فى مسائل الغدد وتطور الوظيفة التناسلية — أن هذه المعارف اثبتت أن الشذوذ الجنسى طور من أطوار العمر كما هو مذهب فرويد وشيعته ، أو أن الشذوذ الجنسى

جنس ثالث مستقل بين الذكورة والأنوثة كما هو مذهب هرشفيلد وطائفة من تلاميذه ، وكل مايصح بعد هذه المعارف العلمية فى العصر الحديث أن الشذوذ الجنسى قد يرجع إلى أصل فى البنية ، وأنه قد يرجع إلى علل نفسية أو عوارض اجتماعية ، ويجزم طبيب من أقطاب النفسانيين الجنسيين نفى العلل البيولوجية ويقصر علل الشذوذ كلها على الصدمات العصبية والعادات المكتسبة. وهذا الطبيب هو ولهلم ستيكل (١) الذى كان مديرا للكلية الطبية بجامعة فيينا ، وصاحب التواليف المعتمدة فى العلاج النفسانى والتحليلات النفسانية وأشهرها كتاب «الأمراض العصبية فى الشواذ» The homosxual Neurosis وكتاب « حب الجنس المزدوج » Bisexuallove وهما موضوعان لنفى العلل البيولوجية الموروثة وإثبات العلل النفسية والعصبية بالأمثلة المستمدة من تجاربه الشخصية .

وقد سجلت الاحصاءات التى اشرفت عليها لجان العلماء المسئولين ممن خولوا درس هذه المسائل فى الجامعات والمدارس والمستشفيات والحقول والمعاهد المزدحمة بأفراد الجنسين أو أفراد الجنس الواحد ، فدلت هذه الاحصاءات على أن نسبة الشواذ مدى الحياة لاتزيد على أربعة فى المائة ، وأن الحالات التى تعرض بعض الناس للشذوذ الجنسى قد تعرض أمثالهم للاتصال بالحيوان ، وأن الوسائل المصطنعة فى العواصم تشجع الشذوذ ومنها البؤر والمباءات التى يديرها طلاب الكسب ويتردد عليها طلاب الاستطلاع ممن تستهويهم تجربة اللهو حيثما اطلعوا منه على لون

(1) Wilhelm-stekel

غريب ، ولا نظير لهذه البؤر والباءات فى القرى الصغيرة فهى لذلك قليلة الشواذ بين أبنائها وبناتها بالنسبة إلى المواصم الكبرى (١) .

ويتحرج معظم العلماء فى تقرير القواعد والأوصاف التى يسوقونها مساق الجزم واليقين فى هذه الأمور .

فلم يسلم من الملامة أمثال مارانون الأسبانى Oregorio Maranon لأنه سرد فى بحثه العلمى عن تطور الجنس The Evolution of Sex أشباهاوملامح زعم أنها تلازم الشواذ وتميزهم من غيرهم ، وربما شملت هذه الملامة أناسا من أجل الأساتذة الموقرين بين تلاميذهم ومريديهم من طبقة هرشفيلد وستيناخ المتقدم ذكرهما ، أو طبقة العلامة الفرنسى اندريه تريدون André Tridon صاحب كتاب التحليل النفسانى والأخلاق ، لأنه زاد عليهم فعمم الحكم على طائفة كاملة لاتجمع بينها ملامح خاصة بل يجمعها اليتم أو فراق الأبوين .

فمثل هذه التعميمات ، فى الحق ، تهجُّم لامسوغ له من العلم ولا من أدبه ، ولسنا نقصد بهذا أن الشواذ مجردون من الملامح والخصائص التى قد تدل عليهم ، ولكننا نقصد أنها قد توجد فيهم وفى غيرهم ، وقد تميز الشواذ حين تقترن بدلالات كثيرة تلصق بهم مجتمعة ولاتميزهم متفرقة وسنضرب المثل على ذلك بهذه الملامح المتعددة حين تجتمع فى شخصية « أبى نواس » .

---

(١) السلوك الجنسى عند ذكور الانسان تأليف الدكتور كنسى وزملائه
Sexual Behaviour in The human Male By Kivsey and Ohers

وينبغى أن نثوب إلى قسطاس مفهوم لايعتسف التفرقة بين العلامة الجسدية وهى عرض من أعراض الشذوذ الجنسى وبين هذه العلامة بعينها وهى لا تدل على مرض من أمراض النفس ولاتتعدى موضعها من البنية .

فالنفسانيون متفقون على أن العاهات النفسية إنما هى توقف فى النمو أو احتباس له يعوق المصاب أن يستوفى نمو العاطفة أو الفكر أو الحاسة الاجتماعية أو وظائف البنية ، وتقترن بهذه العاهات أحياناً علامة محسوسة أو عادة جسدية نابية . إلا أن هذه العلامات قد تكون موضعية فلاتدل على نقص مستتر ، كعثرات النطق مثلا ، فإنها قد تدل على احتباس القوى الناطقة عند دور الطفولة فيظل الرجل طفلا تلازمه عيوب النطق الناقص إلى سن الشيخوخة ، وقد تطرأ بعد تمام النمو فيلثغ الرجل فى الخمسين أو الستين إذا سقطت ثناياه ، ويتمتم أو يرت لسانه إذا اصطدم واختل جهازه الصوتى دون مساس بعاطفته وشعوره .

كذلك الطفل اليتيم أو الطفل الذى افترق أبواه وتربى مهملا أو مدللا فى حضانة أم جاهلة لاهية ، فهو عرضة للشذوذ الجنسى إذا كان ضعيف المزاج فى بيئة مغرية شبيهاً بالنساء فى سماته وملامحه ، ولكنه قد يندفع إلى السطو والاجرام إذا كان قوى المزاج متغلبا على أقرانه ، وقد يسلم من الشذوذ والإجرام معا وهو ضعيف المزاج مشابه للنساء . إذا نشأ فى بيئة بعيدة عن مغريات الرذيلة والجريمة ، أو كانت الرذيلة والجريمة فى بيئته مما ينفر الطفل ويثير سخطه واشمئزازه .

فالعلامات الجسدية وحدها لاتكفى لتمييز الشواذ والدلالة على عاهات

الأخلاق والطباع ، ولا بد معها من قرائن عدة تتناول البيئة فى نطاقها المحدود وفى نطاق المجتمع الكبير ، وتأتى دلالتها حتمية قاطعة متى ثبت المرض وتجمعت أعراضه الأخرى أما قبل ذلك فهى دلالة ناقصة تسقط من كل تقدير صحيح .

وسنرى عند تطبيق هذه العلامات على أبى نواس نماذج من الأعراض التى لاتدل على شىء حين تنفرد ولا تنقض دلالتها حين تجتمع . فإن أعراض البنية والتربية البيتية ونشأة المجتمع واحداث العصر قد اجتمعت فى حالته الخاصة دون سائر الحالات التى وجد فيها شعراء عصره ، فجعلته تلك « الشخصية النموذجية » التى تكاد لاتتكرر فى جيل .

الحسن بن هانئ

والآن نستطيع أن نثبت من سيرة « الحسن بن هانىء » صاحب الشخصية النموذجية التى وجدت حقا ولم يخلقها الوهم من تصورات السامعين به على حسب اختلاف الأوقات والاحوال

وهذه الشخصية النموذجية غير شخصية « أبى النوّاس »

هى شخصية « نرجسية » باصطلاح النفسانيين المحدثين على أن نفهم « النرجسية » فهما يخالف تعليلات « فرويد » وتعميماته ، وهى تلك التعليلات والتعميمات التى لايقرها أحد من نظرائه وانداده ، ومنهم أناس ضارعوه فى المنزلة العلمية والشهرة العالمية بعد أن تتلمذوا عليه .

فليست النرجسية طورا طبيعيا من أطوار العمر يمر به كل انسان ولكنها آفة نفسية تولد مع صاحبها فى رأى بعض النفسانيين وتنشأ من التربية البيتية وعوارض المعيشة الاجتماعية فى رأى آخرين

فمن الذين أنكروا تعليل فرويد لهذه الآفة العالم الفرنسى دكتور رولان دالبيز Dalbiez الذى عقب على مذهب فرويد بمجلدين ضخمين خلاصتهما أن فرويد لايفرق بين منهج العلاج وفلسفة علم « النفسيات » وقد تناول دراسة النرجسية خاصه فقال فى لهجة حاسمة : « ولكن هل لدينا مايسوغ الذهاب إلى أبعد من هذا المدى لنقول كما قال فرويد أن النرجسية درجة طبيعية فى التطور الجنسى ؟ اننا لانتردد فى الاجابة عن

هذا السؤال بالنفى ، فليس التطور الجنسى سلسلة متتابعة من الشذوذات وليس النمو الجسدى كذلك سلسلة متتابعة من المسوخات . . » (١)

ومن معارضيه هرشفيلد المؤلف الموسوعى فى النفاسيات الجنسية ، وهو يتناول النرجسية فى الفصل السادس من الجزء الأول من كتابه عن النفاسيات الجنسية وهو كذلك ينكران النرجسية درجة طبيعية فى التطور الجنسى ويردها إلى فعل الغدد واختلاف تركيب البنية

ومنهم الدكتور لوينفلد Lowenfld مؤلف كتاب الجنسيات والأمراض العصبية وعنده أن النرجسية ليست طورا طبيعيا أو درجة طبيعية ولكنها انحراف يميل إلى الشذوذ الجنسى ويجرى أحيانا فى مجرى واحد مع غرام النرجسى بأبناء جنسه

ومنهم الدكتور سادجر Sapger تلميذ فرويد الذى يخالف أستاذه ويوافق الدكتور لونفيلد فى رأيه وتفسيره (٢)

ومنهم امام مدرسة مستقلة عن المدارس الأوروبية وهو الدكتور وليام مكدوجال ورأيه فى كتابه « اجمال العلل النفسية أن غرام الطفل بنفسه حالة غير حالة النرجسية (٣)

ومنهم سيدة طبية تطبق العلل النفسية على الخصوص فى الوجهة الأنثوية

---

(١) الجزء الثانى من كتاب دالبيز :
Psychoanalytical Method And The Doctorine Of Frend

(٢) يراجع المجلد الثانى من مجموعة الدكتور هافلوك أليس باب النرجسية ، وفيه الملم بهذه الآراء

(٣) Outline Of Abnormal Psychology

(٤) Karen Horney فى كتابها :
NewWays in psycho -analysis

وهى الدكتورة كارين هورنى Horney التى تقرر فى كتابها عن الاساليب الحديثة فى التحليل النفسانى أن فرويد لم يفرق بين تعظيم النفس وتمديدها Self - Inflaton وبين النرجسية بمعنى عشق النفس والتدله بها من الناحية الجنسية

فالنرجسية التى نتتبع أعراضها فى الحسن بن هانىء ليست حالة طبيعية تلاحظ على انداده وفى مثل عمره. ولكنها حالة منحرفة ولد ببعض أعراضها وجاءته الأعراض الأخرى من البيت والمجتمع والعصر الذى نشأ فيه وعاش فيه سائر حياته، وهى حالة لا يشابهه فيها أحد من شعراء عصره ولم يخطىء معاشروه الذين أفردوه بها وأحسوا أنه هو دون غيره تلك « الشخصية » النموذجية التى طبعت بطابع واحد لم يتعدد فى زمانه ولعله لم يتعدد على هذا النمط بعد زمانه

ولقد توافقت الدلالات والأعراض على تميز هذه الشخصية النموذجية فاجتمعت فيها دلالات التكوين ودلالات النشأة البيتية ودلالات المجتمع ودلالات العصر بحذافيره حيث عاش بين البصرة والكوفة وبغداد أو حيث عاش فترة من عمره فى الديار المصرية

وعلينا أن نقيم الفاصل الواضح بين هذه الدلالات فى سيرة الحسن ابن هانىء وبين هذه الدلالات بعينها حين تؤخذ متفرقة وحين تنفرد كل منها بالاستدلال على « شخصية مجهولة »

فالآمة هنا ثابتة والدلالات إنما تأتى بعد ذلك لتطبيقها واستخراج

أسبابها ومراجعة هذه الأسباب على النشأة والبيئة

فليست الدلالات هنا هى التى تتهم الحسن بن هانىء وتقيم البيئة على اتصافه بآفته النفسية ، ولكنها قرائن تنتظر التطبيق والمضاهاة بينها وبين الآمة الموجودة ، فلا حرج من الاستدلال بها وهى متفرقة أو من الاستدلال بها وهى مجتمعة

أما الاعتماد على أشتاه هذه الدلالات لاثبات آفة غير ثابتة فهذا هو موضع الحرج والأزلة ، فان كل منها قد يؤخذ على حدة فلا يدل على شىء وقد تجتمع مما فيبقى الشك فى حقيقة الأرتباط بينها ومقدار التوافق فى جوانب هذا الارتباط وتلاقيها حقا على وجهة واحدة

لهذا يجوز أن يعتمد الباحث على بعض الأعراض فى دلالتها على هذه الشخصية ولا يجوز أن يعتمد عليها فى سائر الشخصيات ومرجع ذلك إلى ثبوتها مجتمعة ومتفرقة ثبوتا لاخلاف عليه

ونبدأ بدلالات التكوين الجسدى كما جاءت فى أوصاف لم يخالفها أحد من مترجميه :

التكوين الجسدي

قال ابن منظور فى أخبار أبى نواس : « كان حسن الوجه رقيق اللون أبيض حلو الشمائل ناعم الجسم ، وكان فى رأسه سماحة وتسفيط أى كان

شعره منسدلا على وجهه وقفاه ـ وكان ألثغ بالراء يجعلها غينا ، وكان نحيفا وفى حلقه بحة لاتفارقه

وقال من سيرته مع والبة بن الحباب « فرأى بدنا حسنا ، وكان جميل الوجه وحسن البدن ، فأطار عقله

* وقال فى سبب تسميته بابى نواس . سئل مرة أخرى فقال : سبب كنيتى أن رجلا من جيرانى بالبصرة دعا إخوانا له فأبطأ عليه واحد منهم فخرج من بابه يطلب من يبعثه اليه ليستحثه على المجىء اليه فوجدنى مع صبيان العب معهم وكانت لى ذؤابة فى وسط رأسى فصاح بى . ياحسن امض إلى فلان وجئنى به ، فمضيت أعدو لأدعو الرجل وذؤابتى تتحرك فلما جئت بالرجل قال احسنت ياأبا نواس ، لتحرك ذؤابتى ، فلازمتنى هذه الكنية . *

وكان يعتز بفراهة بدنه . قال أبو القشير : « نظمت الشعر وأنا غلام وأبو نواس غلام وكنا جميعا نضرب العود وكنت أحسن وجها من أبى نواس وأبو نواس أطبع منى فتفاخرنا بالشعر وغيره ، ثم قلت له : إنى أجمل منك وجها ، فقال بل أنا أحسن منك وجها وأفره . .

وكان لاينسى ملاحته وتيهه بها وقد جاوز الشباب كما قال من شعره

تتيه علينا أن رزقت ملاحة
فمهلا علينا بعض تيهك يابدر
فقد طالما كنا ملاحا وربما
صددنا وتهنا ثم غيرنا الدهر

وتكاد تتمثل لنا من هذه الملامح صورة نرجسية للحس والعيان قبل النرجسية النفسية التى يدور عليها بحث علماء الأمراض النفسية فالبياض وارقة والنعومة والملاحة والشعر المنهدل أشبه ماتكون بملامح للفتى نرجس الذى حنا على الجدول فاستحال نرجسة واتخذه الاسطوريون اليونان نموذجا للجمال المعنون بمحاسنه

ودلالات التكوين الأخرى تتمم هذه الملامح فيما تسمعه الأذن ولا تراه العين . فاللثغة وبحة الصوت تشيران إلى تكوين وسط بين كيان الصبى وكيان الشاب الناضج . وليس هذا الاحتباس فى جهاز الصوت موضعيا لايرتبط بحالة كامنة فى وظائف البنيه لانه غير مقصور على لثغة اللسان بل شامل للحنجرة كما يبدو من بحة الصوت التى لاتفارقه . ولعلهم لو كانوا فى زمانه يعرفون مراكز الدماغ التى تسيطر على النطق عامة لاضافوا إلى ذلك لوازم أخرى مع اللثغة والبحة الحنجرية . ولكن ماذكروه كاف للدلالة على أن النقص شامل لجهاز النطق كله ومايليه من الغدد التى تسيطر على إعداد البنية للمراهقة وليس بالمقصور على الحنجرة واللسان

ولايخفى أن جهاز النطق شديد العلاقة بالنمو الجنسى فى الرجال على الخصوص فلا يدرك الرجل سن النضج حتى يغلظ صوته ويعمق ويبرأ لسانه من لكنة الطفولة ولثغات الحروف فاذا عم النقص لسانه وحنجرته كان لذلك علامة بوظائفه الجنسية مدى الحياة

وتضاف إلى لثغة أبى نواس وبحته ظاهرة لها علاقة بالنفسية الجنسية

وبالكيان الجسدى المتصل بهذه النفسية

فالضفيرة التى كانت مرسلة من رأسه تنبىء من الوجهة النفسية التى كان أهله يشعرون بها ولا ريب عن صبى شبيه بالبنات ترسل له الضفائر تدليلا ومجاراة لسيماه الغالبة عليه ، وهذا التدليل من علامات الرجسية التى يرجع فيها إلى أثر البيت والتربية .

ويظهر أن أبا نواس قد أراد الاحتفاظ بهذه الضفيرة بعد بلوغه سن الرجولة معتزا بغزارة شعره ، فاشفق من السخرية والعبث ولم يسترح إلى نبذها مرة واحدة فاستعاض عنها بتسفيط شعره وابقائه منسدلا على جبهته وقذاله ، وهذا الى نعومة الجسم وخلوه من الشعر علامة جنسية لاتهمل مع اضافتها إلى غيرها من العلامات المتوافقة

فالمعهود فى شعر الرأس أنه من العلامات الجنسية الثانوية وأنه على صلة بهرمونات الذكور والأناث على السواء

ويتعرض الرجل للصلع بعد سن الشباب على الأغلب ، فقلما يصلع الشبان فى ابان القوة الجنسية

ولو وقف الأمر عند هذا لما احتاج إلى بحث طويل ، فيكفى أن يقال أن غزارة شعر الرأس مرتبطة بالقوة الجنسية ، ثم يتساقط الشعر مع تقدم السن وتناقص هذه القوة

ولكن المشاهد أيضا أن النساء قليلات الصلع وأنه قلما يصيب الخصيان المجبوبين قبل البلوغ

فبماذا يكون تعليل الصلع مع النظر إلى جميع هذه الملاحظات ؟ هل

يأتى من ضعف هرمونات الذكورة ؟ ان كانت هـــذه هى العلة فالأولى أن يصاب به النساء والخصيان

فهل يأتى من قوة تلك الهرمونات ؟ على هذا التقدير ينبغى أن يصلع الشبان ولا يصلع الشيوخ

والتعليل المعقول إذن أنه يأتى من تحول فى طبيعة هرمونات الذكورة فاذا كانت فى نشأتها قوية غالبة ثم شاخت مع شيخوخة البنية حدث الصلع وان لم تكن من نشأتها قوية غالبة لم يتحول الشعر عن حالته ، وإذا بقيت على قوتها بقى شعر الرأس كأنه فى سن الشباب

فأبو نواس إذن بقى على حالة واحدة من صباه إلى شيخوخته ، فحكمه فى هذه الحالة حكم النساء والخصيان

وإذا أضيف إلى هذا خلو جسمه من الشعر واحتباس جهازه الصوتى عند الحالة التى تتوسط بين الصبا والشباب كانت هذه العلامة أيضا خليقة أن يلتفت اليها ولا تهمل فى سياق الفحص عن الجنسيات والنفسيات

ولا حاجة إلى الإسهاب فى الكلام عن شعوره بمحاسن بدنه شعوراً رجسياً كالعشق الذاتى الذى يعنيه الأطباء النفسانيون . فان مفاخرته لأبى القشير واعتزازه بفرامة بدنه وذكرى التيه الذى كان ينعم به فى صباه وأشباه ذلك من نوادره وقصائد مجونه ـ تغنى عن الإسهاب فى هذا الباب

* * *

البيت

وعنوان النرجسية التى اندست اليه من تربية البيت هى تلك الضفيرة التى ظلت مرسلة من رأسه إلى السن التى يلعب فيها مع الصبيان ، سواء كانت هى سبب تسميته بأبى نواس أو كان لهذه التسمية سبب غيرها

فهو طفل مدلل فى كفالة أمه ، وربما دللته لأنه وحيدها كما قال فى شبابه :

لاتفجعى أمى بواحدها لن تخافى مثلى على أمي

فقد عاشت حتى شاخت وقالت فيها الجارية «عنان» تهجوه وتهجوها

عليك أمك (خذها) فانها كنديرة

والكنديرة بالفارسية هى العجوز الخرفة

ولايمنع أنه واحدها ما جاء فى ترجمته من سيرة أخيه وأخته ، فربما كانا أخويه لأبيه : إذ كانت أمه قد تعطلت من أبيه وهو غلام صغير ولبث بعد ذلك فى كفالة أمه ، ولا يبعد أن يكون أبوه قد تزوج قبلها أو بعدها

ومن أسباب التدليل التى أحصاها أطباء الأمراض النفسية أن تشتهى الأم أن ترزق بنتاً لقربها أو وحدها واقترابها من الشيخوخة التى تحتاج فيها إلى عناية المرأة ، فترزق ولداً ذكراً بدلا من البنت التى تتمناها ، ويحدث فى هذه الحالة أنها تربى الولد تربية البنات تسلية لها ومغالطة لأمنيتها ، وليست هذه الأمنية بعيدة من خاطر أمه لأنها كانت امرأة من قرى الأهواز تزوج بها هانىء وهو فى جيش الامويين ثم نقلها إلى البصرة بعد قيام

الدولة العباسية . فجاءتها وحيدة منقطعة عن أهلها ، وجعلت تعيش في موطنها الجديد بأرضاع الأطفال وصنع الجوارب وبيع الملابس لنساء البيوت .

يقول أندريه تريدون Tridon في كتابه « التحليل النفساني والأخلاق »

« إن المحللين النفسانيين متفقون جميعا على تكوين الشذوذ الجنسي في صورته المنفعلة . فان الصبي الشاذ المنفعل هو في جميع الحالات ابن أيم أو زوجة مطلقة فارقت زوجها بالموت او الهجر والمقاضاة عقب ولادة الطفل فنما الطفل مضطرا إلى التماس قدوة يقتدي بها فوجد هذه القدوة في أمه وكبر وهو يحاكيها في الاعراض عن النساء والمبالاة بالرجال ، وأصبح كالمرأة في كل اعتبار غير اعتبار التشريح ، ثم يدرك الرغبة الجنسية على النحو الذي تدركه المرأة فيتمنى مثلها أن يحرزه رجل كما يحرز النساء »

ويجاري النفسانيين في مثل هذا الرأي أستاذ لعلم الأمراض النفسية قليل الشطط في آرائه ، وهو الدكتور جوردون آلبورت Allport أستاذ هذا العلم بجامعة هارفارد، فيقول في كتابه عن الشخصية والترجمة النفسية[1]

« إن الولد النحيل الذي يعاني جرحا نرجسياً يجد ملاذاً له في أن يصبح عشيراً مدللا Pet لأستاذه »

وقصة أبي نواس مع أستاذه والبة بن الحباب هي تطبيق لهذه الملاحظات من الغلاة والمعتدلين من العلماء النفسانيين

---

(١) Personality, and Psychological interpretation

ولم يكن التدليل هو كل ما ابتلى به أبو نواس فى صباه من مغامز الآفات الجنسية ، فقد قيل أن أمه كانت تستخدم صناعتها فى الإتجار بملابس النساء لتجمع بين الغوانى وطلابهن فى بيتها « وكان لها بيت تناده فيه الغوانى » ولصقت بها هذه السمعة إلى ما بعد شبابه ، فقال فيه الشاعر ابان بن عبد الحميد اللاحق .

أبو نواس بن هانى وأمه جلبان

والناس أفطن شيء إلى دقيق المعانى

وكانت الجارية عنان تغرى به السفهاء والعيارين أن يصيحوا به كلما رأوه :

أبو نواس اليمانى وأمـــه جلُبانِ

والنغل أفطن شيء إلى حروف المعانى

وتريد بالنغل أبا نواس ، وتشير إلى امرأة كانت كما قيل تربى أولاد الزنى وتربيهم ، وهى أمه جلُبّان ! »

أما أبوه «هانىء» فالأرجح أنه من سلالة زنجية تنتمى إلى مولى من اليمن وكان أسود شديد السواد قال فيه ابان :

هانىء الجون أبوه زاده الله هوانا

وكان أبو نواس يتعصب لليمانية أحيانا ، ويهجو من أجلهم النزارية كثيراً ، ولكنّ أصدق الأقوال فى نسبه ما قاله فيه الرقاشى أنه :

واضعٌ نسبته حيث اشتهى فاذا ما رابه ريب رحل

فقد ادعى زمنا أنه من ولد عبيد الله بن زياد بن ظبيان من بنى عامر من تيم اللات الذى ينتهى نسبه إلى وائل ... فقيل له : ان الرجل الذى تدعى اليه لاعقب له لأنه فلج ومات ولا ولد له . فترك الانتساب اليه وذهب يتنقل بين الأنساب اليمانية حيث شاء ، ولم يلبث أن هجا اليمانية فقال :

لأزد عمان بالمهلّب نزوة إذا افتخر الأقوام ثم تلين

وبكر ترى أن النبوة أنزلت على مسمع(١) فى الرحم وهو جنين

وقالت تميم لا نرى أن واحداً كأحنفنا حتى الممات يكون

وفى غير هذا الكلام يهجو نزاراً فيقول :

واهج نزارا وأفر جلدتها وهتك الستر عن مثالبها

وفى هذه القصيدة يقول مفتخرا بقحطان :

فافخر بقحطان غير مكتئب فخاتم الجود من مناقبها

ولا ترى فارسا كفارسها ان زلت الهام عن منا كبها

عمر وقيس والاشتران وز يد الخيل أسد لدى ملاعبها

وربما تعاجم وتمكز للعرب جميعا كما قال :

تراث ابى ساسان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكر

وربما فضل مفادمة العجم على مفادمة العرب حيث يقول :

نادمتهم أرتاض فى آدابهم فالفرس عدوى سكرهم محسوم

---

(١) مسمع أبو قبيلة فى ربيعه

ولفارس الأحرار أنفُس أنفُس وفخارهم في عترة معـــدوم

ويستكثر في قصيدة أخرى منادمة الشراب على الأمم جميعاً غير العرب فيقول :

لاتمكنّني من العربيد يشربني ولا اللئيم الذي أن شمني قطبا
ولا المجوس فإن النار ربهم ولا اليهود ولا من يعبد الصُّلُبا
ولا السفال الذي لايستفيق ولا غر الشباب ولا من يجهل الأدبا
ولا الأراذل إلا من يوقّرني من السقاة ، ولكن أسقني العربا

وهكذا راح أبو نواس يفخر اليوم بما ازدراه أمس ويمدح لهذه المناسبة أو تلك ماذمه لمناسبة أخرى ، ويلهج بهذه المفاخرات والمهاترات في مطالع القصائد لينعى على العرب طلولهم وبواديهم ويؤثر عليها التغني بالمدامة والمنادمة ، أو يلهج بها في المدائح ليقدح في كل نسب غير نسب الممدوح ، أو في الأهاجي ليعيب من يقصده بالهجاء ، وكانت هذه النغمة هجّيراه لايكاد يسكت عنها في باب من أبواب المعصية .

ومن اللغو أن تؤخذ هذه المهاترات مأخذ الدعاوى الجدية التي يحققها مدعيها ويعول على تحقيقها ، فإن المرء لايلهج هذا اللهج بشيء إلا أن يكون له مساس بهوى دفين يغريه باللغط فيه على غير مشيئته ، والمساس بالهوى الدفين هو الذي يسميه المصريون بالعقدة النفسية ، وها هنا عقدة نفسية على متناول اليد لاتعنت السائل عنها من قريب ولا تلجئه إلى سر غير مكشوف .

فليس في نفس النرجسي عقدة آلم لها من تلك التي تمسها في فتنتها بذاتها وتمسها من ثم في شهوة العرض والمعارضة ، ونزوة التحدي والاستثارة .
ومشكلة النسب تمس أبا نواس في هذه وتلك ، أي أنها تمس فتنته

بذاته ، وشهوة العرض والمعارضة فى دخيلة طبعه .

فليس أثقل على الفتى المغموز النسب فى أبويه معا من المفاخرات التى تتعالى بها الأصوات من حوله ولا يسمع له بينها صوت .

وقد كان العصر عصر المفاخرة بين الشعوبيين والعرب أجمعين ، وكان عصر المفاخرة بين القحطانيين والعدنانيين ، وكان عصر المناجزة والمعاجزة بين العلويين والعباسيين ، ولم يكن أبو نواس قصير اللسان منزويا عن الناس فيسكت وينزوى ، ولم يكن صغيراً عند نفسه فيعترف عليها بالصغر والمهانة .

ونخالها العقدة الوحيدة التى شقيت بها نفس أبى نواس ، لأن العقد النفسية لاتعيش فى دخائل الاباحيين ، إذ كانت العقدة بطبيعتها كبتاً وكتماناً وكانت الاباحية مجاهرة بما يكتبه الناس ويكتمونه ، ولكن مشكلة النسب شىء لايباح به ولا يكشف إلا على المغالطة والتحدى ، وهذا ما فعله أبو نواس .

ولاشك أن هذه العقدة كانت من أقوى بواعث أبى نواس على معاقرة الخمر وألفة مجالسها ، واختيار المجالس التى لاتسمع فيها المفاخرة بالانساب أو تسمع فيها ولكنها تعاب على سنة الظرفاء والاحباب .

راح الشقى على الربوع يهيم ... والراح فى راحى ، فرحت أهيم
بمزمزين عدوا بسدفة ليلة ... والليل ملتبس للظلام بهيم
نادمتهم أرتاض فى آدابهم ... فالفرس عدوي سكرهم محسوم
ولفارس الاحرار أنفس أنفس ... وفخارهم فى عترة معدوم

. . . . . .

وإذا أنادم عصبة عربية ... بدرت إلى ذكر الفخار تميم

وعدت الى قيس وعدت قوسها.. سبيت تميم وجمعهم مهزوم
وبنو الأعاجم لاأحاذر منهم شرا فمنطق شربهم مذموم
لايبذخون على النديم اذا انتشوا ولهم إذا العرب اعتدت تسليم
وجميعهم لى حين أقعد بينهم بتذلل وتهيّب موسوم

نعم وهذه هى العقدة . فهو يختار المنادمة حيث لامضايقة بالمفاخر والدعاوى وحيث يرى من حوله التوقير والتسليم. ولكنه لا يسكت سكوت الواجم الذليل فى غير هذا المجال بل يصول صولته هاجيا أو مباهيا ليتحدى ويستثير

ولاشك أن ولاءه لقوم من اليمانية غير مكذوب من أساسه ولكنه ولاء العبد الذى تدرج من الفخر بسادته إلى ادعاء ولائهم ثم ادعاء نسبهم . وليس من المصادفات أن يكون اسم أبيه هانئا كاسم بطل اليمن المشهور فى حرب ذى قار « هانىء بن مسعود بن بكر » وقائد قومه فى النصر على جيش الأكاسرة . وليس من المصادفات أن يسمى أخوه أبا معاذ على اسم معاذ بن جبل الخزرجى الذى كان من اليمن وكان رسول النبى عليه السلام إلى اليمن وقاضيها المختار لهديتها وارشادها ، وكذلك جاءت نسبة أبى نواس إلى الذوين من اليمانين . بل كذلك اختار أبو نواس جميع أساتذته أو أكثرهم من اليمانية وأصحاب الولاء فيهم منهم يعقوب الحضرمى وخلف الأحمر وأبو زيد الأنصارى وغيرهم من المنتمين إلى اليمن بالنسب أو بالولاء

فليس هذا مما يتفق بالمصادفة ولكن صاحبنا علم أصل ولائه وعما

وترعرع وهو يستمع إلى الأسماء اليمانية فى بيته فأراد أن يغرس عقيدته فى الانتساب إلى اليمانية بالايحاء إلى نفسه والتماس القربى لكل لاهج مثله بهذه النسبة ومكنها بهجو النزارية عسى أن يقبله القحطانيون فيتمكن بينهم بالاغضاء والسكوت ان لم يتمكن بينهم بلحمة الآباء والأجداد

وأصل هذه الدعوى كلها على ماهو ظاهر أن هانئا أباه كان من زنج اليمن أقرب بلاد العرب إلى جلب الزنج من طريق البحر الأحمر ، ولم يختلط قومه طويلا بغير الزنج . فلم يفارق أباه سواد لونه وتزوجت أخته من عبد يسمى فرجا القصار وولد الشاعر أبيض بلون أمه ، فاختار من النسب أقربه اليه ، ولم يختره إلا وهو مستعد للانكار وتشديد النكير على من ينكر دعواه ، وبخاصة حين يجد من طبعه نزوعا إلى تشديد النكير للتحدى والاثارة

والحسن الصغير - على هذا - قد أخذ من بيته النرجسية مولودا وأخذها وهو يتربى فيه مدللا مهملا محروما من الرعاية الرشيدة ؛ وأخذها من مشاهداته فيه وهو يخطو إلى الفهم ويظن أنه يتعقل مايراه . فليس أعون على الاباحية النرجسية من مشاهدة الرياء حاسرا بغير قناع فى حظائر الأسرار بين جدران البيت . . . وخليق بمن طبع على العبث بالعرف ألا يكترث له وهو يرى المسانير من الرجال والنساء أمام الناس بادين على حقيقتهم فى خلوات الفجور والمجون !

بيئة المجتمع

وتطبق البلية من بيئة المجتمع حيث فتح الحسن عينيه على الدنيا المريضة من مدينة البصرة فرضة العالم كله في ذلك الزمان

فالبصرة في موقعها مثابة الطلاب والقصاد من كل بلد وكل نحلة وفيها محاسن الحضارة ومساوئها مبذولة لمن يشاء كيف شاء . وكل مصيب فيها بغية من العلم والأدب أو من الكسب والتجارة ، أو من اللهو والغواية أو من الثورة على الدولة والولاء لها في ذلك الزمن المريج المتقلب بين شتى الدعوات والغارات

وكان من حولها قطاع الطريق يتربصون بالقوافل برا وبحرا وينهبون من استطاعوا نهبه ثم ينفقون السلب على الخمر والقمر والدعارة في الحاضرة الكبيرة ، ولا يزالون بين احتراء واحتماء كلما أنسوا غرة من الدولة وشاغلا من حفاظ الأمن أو أحسوا لها شدة ويقظة في تعقب الشطار والخراب

وكان عصر أبي نواس أول عهد البصرة بالوهبية المتشردة المتهجمة كما عرفتها مدن الحضارة حيث شاعت وفشت في أدوار القلاقل والمنازعات ففي ذلك العصر أخذ « البوهيميون » يفدون من مواطنهم الأسيوية الهندية ويزحفون إلى الغرب جموعا أو متفرقين ، بل جيوشا أو عصابات على حسب المكان الذي يعبرون عليه

هؤلاء هم لزط أو الزط أو البوهيميون بعاداتهم وأساليبهم التي تجمع بين غارات الفتك والعدوان وغارات الغواية والمتاع المبذول ، حيث يستطاع الفتك أو يروج المتاع

والزط هم البوهيميون بعينهم ، والكلمة مصحفة من كلمة أوربية قديمة أطلقت عليهم لأن الأوربيين حسبوهم قادمين من الديار المصرية ، فسموهم تارة « جيتو » وتارة « جبسى » Gipsy من كلمة جبسيانو أو جبسيانو التى يطلقونها على المصريين ، إلى أن أقامت طائفة منهم فى أواسط أوربة فغلب عليهم إسم البلد الذى أقاموا فيه واشتهروا من ثم بالبوهيميين

والبوهيمية بعاداتها وأساليبها معروفة لم تتغير منذ تسربت إلى بلاد الحضارة ، وأولها التشرد وقلة المبالاة بالعرف الاجتماعى ، وطلب الكسب اختطافا أو اختلاسا أو متاجرة باللذات والشهوات حيثما اتفقت . وهذه على الأقل هى البوهيمية كما اصطلح عليها العرف الشائع بين أبناء الحضارة وصفا لما عهدوه من عادات « الزط » المترحلين

وكان هؤلاء الزط ينزلون حيث نزلوا إلى جوار الحواضر ومعهم فتيانهم يردن لهم البيوت والديار وقد يكشفن لهم ثغرات المدن للاغارة عليها كلما أمكنتهم الفرصة أو العوز

قال ابن خلدون : « هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها »

وتفاقم خطبهم أيام الخليفة المعتصم فاجترأوا على مهاجمة المدن ونهب يبادرها وحمل أرزاقها ، ولم يأمن شرهم حتى جرد لهم قائده عجيفا وحصرهم بقطع الأنهار وسد مسالف الطرق ثم أسر منهم أكثر من عشرة آلاف مقاتل نقلهم إلى عين زربة فأخذهم الروم بنسائهم وذراريهم فى غارة من غاراتهم على تخوم آسيا الصغرى .

أما فى جيل أبى نواس فلم يكن قد وفد منهم على جيرة البصرة غير طلائع متفرقة ، يقطع بعضهم الطريق فى البادية وينزل بعضهم إلى جوار الأرباض المتطرفة ، ويجرون على عاداتهم التى تلخصها كما أسلفنا كلمتان : التشرد والتحلل من عرف المجتمع وآداب الحضارة

وكانت للفئة التى اشتهرت باسم «الشطار» بعض طلائع هؤلاء الأخلاط .. وهم المثل المقتدى به عند أبى نواس كما جاء فى مجونه وخمرياته ، ومنها فيمن يقول انها لامته على صحبتهم جاهلا شرورهم :

وملحة باللوم تحسب أننى   بالجهل أوثر صحبة الشطار

ومن كلامه فى منادمة الفتّاك :

حدريس عطر الفتكـ   ـة كالمسك السحيق

أنما طابت لذى فتك   تردى بفسوق

جاهر الناس بما يأ   تيه فى ضنك وضيق

وبدا فى الناس مشهو   راً كذى الرأس الحليق

أى كالفاتك الذى يأخذه أولياء الأمر ويحلقون شعره ويطوفون به للتشهير ، وفى كل هذا مواضع تأمل لما يتحدث به الوعى الباطن من سريرة أبى نواس أو يحن اليه مزاج الإباحية والغرام بالخروج على العرف المألوف

ومن أمانيه فى هذا المقصد أن يقطع الطريق ان لم يرتفع إلى منادمة الخلفاء

سأبغى الغنى اما جليس خليفة   يقوم سواء ، أو مخيف سبيل

بكل فتى لا يستطار جنانه   إذا نوّه الزحفان باسم قتيل

لنخمس مال الله من كل فاجر   أخى بطنة للطيبات أكول

ولما خرج من بغداد ينوى الرحلة إلى مصر أحب أن يمثل الشطارة بزيه وثيابه إذ كان لا يقوى على تمثيلها بسبوفه وحرابه ، فخرج كما جاء فى أخباره لابن منظور « بزى الشطار ، مصففا شعره موسعا كميه مجرر ذيله على حد قوله فى مجونياته

« يجرر أذيال الفسوق ولا نخر »

ويروى فى ترجمته أنه سأل أستاذه والبة بن الحباب أن يخرج إلى البادية مع وفد بنى أسد ليتعلم العربية والغريب ، فأخرجه مع قوم منهم ، فأقام بالبادية سنة ثم قدم ، ففارق والبة ورجع إلى بغداد

ولم يرد فى ترجمة أديب من بنى عصره أنه ذهب إلى صحراء بنى أسد ليتعلم العربية والغريب فيها ، فالراجح أنها كانت جمحة من جمحاته فى مصاحبة الشطار ثم اشفق من مغبتها وسكت عنها مخافة الطلب والقصاص

* * *

تقول الدكتورة كارين هورنى فى مراقبتها النسوية للنرجسيين أنهم يتعلقون بالمشروعات ولا يثبتون عليها ، ويتنقلون من حرفة إلى حرفة ومن مظهر إلى مظهر ليطمئنوا إلى تمثيل الشخصية التى يسترجعون إليها .

ويقول فليشر Flesher فى كتابه عن الصحة العقلية والوقاية من الأمراض النفسية أو العصبية (١) . « إن اشتهاء القوة المشتق من غريزة العدوان وحب النفس النرجسى يشترك على التساوى فى هذه الرغبة — رغبة التشبه بالكبار فى كل مايفعلون . . . وإن إعجاب الطفل بقدرة الكبار ينبغى أن يعزى إلى تمديد شخصية الغالبة فى النرجسية ليخلدها على

(١) Mental Health and The Prevention of Neurosis

أحدهم ، وبخاصة خلال الطور الأول من أطوار الافتتان بالذات »

فاذا كانت الشطارة حلما من أحلام اليقظة تكبح مخاطره الغلام النحيل الرقيق الذى لاحيل له بتلك المخاطر المستهولة ، ففى البيئة الاجتماعية التى ترعرع بينها هذا الغلام ألوان مستطاعة مما يحلم به ويميل إليه طبعه ويرضى أهواء النرجسية فى طويته . ويكاد أبو نواس يتشكل بكل شكل منها على التعاقب أو فى وقت واحد ، متتبعا للمطالب المتنافرة التى لايتأتى له الجمع بينها ، ولا يجمع بينها عنده إلا تجاربه للشخصيات الجذابة التى يقدر أنها تلفت إليه الأنظار وتوافق « الفتنة الذاتية » التى لاتستقر على قرار .

فتعلم العزف على العود ودق الدفوف ، ليسلك مسلك المسمعين والقيان بين طلاب الملاهى والفنون ، وتعلم التفجيم وتعلم اللغة وتعلم الفقه والحديث وتعلم القراءة والتجويد ، ونظم الشعر وروى قصائد الفحول ، وتعلم العطارة والتجارة ، وتعلم الأخبار والأنساب ، وتردد على معاهد الدرس ومعاهد الرقص والسكر والمجون وتداول هذه الأدوار كأنما يخلع لباس دور من أدوار التمثيل ليلبس غيره على المسرح ، ولكنه مسرح الحياة .

وروى أبى هفان « أن أبا نواس لما تأدب ونشأ وظرف ورغب فيه فتيان البصرة للمصادقة قال : لاأصادق إلا رجلا غريبا شاعرا يشرب الخمور ، يصفها ويصف المجالس ، ويكون له سخاء وشجاعة . فذكروا له جماعة . فلم يحب أن يكون الرجل من أهل بلده ، فهرب إلى الكوفة ، وذكر له بها رجل من بنى أسد يقال له والبة بن الحباب ، يشرب الخمر ويقول الشعر ويجمع الخصال التى أرادها »

وهذا تلفيق ظاهر لا نخاله يروى قصة واقعة ، ولكنه إذا أريد به تمثيل « الشخصية النواسية » أصدق من التاريخ الواقع فى تصور هذه الشخصية ، ولا يكون أبو نواس إلا هكذا فى احتقاره للناس والتذرع للسفر والاقامة .

وأيا كانت الشخصية التى يتلبس بها للمرض والظهور لقد كانت وراءها جميعا تلك « النرجسية الجنسية » التى تغريه أن يتشكل بجميع هذه الأشكال ويتطور بجميع هذه الأطوار ، وما نسيها ولا انسلخ منها وهو يغشى معاهد الدروس والتقوى ، وكان كل أمرد يغشى معاهد الدرس على هذا المثال فى عرفه كما قال :

إذا ماوطىء الأمر — د للعلم حصا المسجد
فقل حل لنا عقداً — من المعفة واستفد
فان كان عروضيا — فقولوا سجد الهدهد
وإن أعجبه النحو — فما ذاك له أجود
وإن مال إلى الفقـ — ـه فللفقه له أفسد
وإن كان كلاميا — فحرك طرف المقود
وميله إلى الخير — فقيه قرب مايبعد
وخذه كيفما شئـ — ـت اقتضابا أو على موعد
وقل : هذا قضاء الـ — ـله هل يدفع أو يجحد ؟

وانتهى مصرحا

فيامن وطىء المسجد — من ذى بهجة أغيد

أنا قست عـــلى نفسى فهذا الآمر لا أجحـد

وقد كان يستند إلى سارية فى معهد من هذه المعاهد حين كتب اليـه ابن مناذر بمدحه بابيات من الشعر فيما روى الرواة فاجابه يفهمه أنه يتصدى للحباء وزينة الأرياه :

وألذ عندى من مديحك لى سود النعال ولين القمص

ويخيل الينا أنه لو نبت فى بيئة اجتماعية تخالف بيئته تلك لما انثنى عنانه إلى غير المواطن التى تجذبه اليها آفته النفسية ، فانما هذه الآفات كالثمرات فى التربة المزروعة تمتص كل ثمرة من أرضها وهوائها وضيائها ما يلائم بذورها ويوائم طعمها وشكلها ولونها . وإلى جانبها على مد الباع ثمرة أخرى تمتص من التربة والجو طعما غير ذلك الطعم وشكلا غير ذلك الشكل ولونا غير ذلك اللون ... وفى البذور سر ذلك التباعد على القرب بين الثمرتين

أما وهو وقد نبت بين أباحية الشطار واباحية الشذاذ من جميع الآفاق فى مآلف الغواة والفساق ، فقد كانت المحنة أقوى من طاقة المقاومة عنده لو أنه يقاوم ، وانما كان على عكس ذلك ينطلق انطلاقه ليسبق للنظراء فى حلبة الجماح والمجاراة

* * *

العصر السياسى

العصر الذى أحاط بحياة أبى نواس يبتدىء من أوائل القرن الثانى للهجرة إلى نهايته ، وهو عصر سقطت فيه دولة بنى أمية وقامت فيه دولة

بنى العباس ، وامثال هذا العصر فى تواريخ الأمم يتسم بسمات الانقلاب ويشيع فيها اليأس من جانب والمجازفة من جانب ، ويتبدل فيها الولاء غير مرة بين النجم الآفل والنجم الطالع ، ولا تطول فيها الثقة بشىء حتى تثوب الأمور إلى قرار .

كان فيها لسان حال الأمويين يتردد فى صيحة ابن سيار :

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام

. . . . . .

وما أدرى ولست إخال أدرى أأيقاظ أمية أم نيام

فقرى عن رحالك ثم قولى على الاسلام والعرب السلام

ومثلها أبيات عباس بن الوليد :

إنى أعيذكم بالله من فتن مثل الجبال تسامى ثم تندفع

إن البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

ولم يكن بنو أمية خلوا من ذلك الملل الذى قال ابن الوليد أنه عم البرية ، فان الأمويين انقسموا فى بيت الملك منذ ابتدعوا عادة التوصية لولاية العهد باثنين فى وقت واحد ، يزاحمهم من بينهم من لم تشمله الوصاية ، فلم ينقض عهد خليفة من خلفائهم دون مؤامرة من هنا ودسيسة من هناك ، ونفاق يتراءى هنا وهناك

وهذه المؤامرات فى بيت الملك تقابلها فى الرعية شعب متفرقة بين الفرس والعرب ، وبين القحطانيين والعدنانيين من العرب أنفسهم ، بل شعب متفرقة بين كل معسكر من هذه المعسكرات ، فلا القحطانيون ولا

العدنانيون مجتمعون على هوى واحد ، ولا الخلاف حيث كان يرجع إلى سبب واحد . فربما تمرد أناس من الفرس لثقل الضريبة ولا سبيل إلى تخفيفها كلما افتقرت الدولة المتداعية إلى المال للتدعيم والتقويم أو افتقرت اليه لاستشراء عادات الترف وانتشار الغصب والاختلاس بين العمال ، وربما تمرد أناس منهم لأنهم على حد قول القائل :

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرىء نصيب ولا حق تمنى زوالها

فلا تسلم الدولة من عداء السوقه . الفقير الذى حرمته الدولة رزقه وعداء السيد الغنى الذى حرمته الدوله ميراثه من الجاه والعتاد ؟

ووراء هؤلاء جميعاً قوم لا يرضون عن أحد ولا يرضى أحد عنهم ، وهم الخوارج الذين حكموا على هذه الطوائف جميعا بالكفر وجردوا مرتكب المعاصى من الاسلام ، وليس أكثر من مرتكبيها فى ذلك الزمان .

وبعد شقاق طويل فى معسكر الدولة الذاهبة تقبل الدولة الجديدة وهى منشعبة بين فرعين : فرع بنى على وفرع بنى العباس ، وقد والاها من والاها فى إبان الدعوة إليها باسم العلويين ثم اتفق وجود زعيم بنى العباس بالكوفة عند انهزام بنى أمية فبادر أعوانه إلى مبايعته وذاع يومئذ أنها بيعة إلى حين فى انتظار أمام العلويين ، ولم تمض غير سنوات حتى وضح أن العباسيين لا ينزلون عنها وتولى الأمر خليفتهم الثانى بعد أن كان الغالب على الظن أن الخليفة الأول يوصى بها لصاحبها العلوى من أيام الدعوة وهو محمد « صاحب النفس الزكية » . . فنشط محمد لها وآزره العديد الجم من الأهواز والعراق واقتحم أخوه ابراهيم البصرة فدان له أهلها ، وتمت البيعة له أو كادت لولا غلبة أبى جعفر على بغداد . فلم يلبث أولياء العلويين فى

البصرة أن تحولوا لجاعة أو على مهل إلى ولاء العباسيين .

كل هذا وأبو نواس فى سن الفهم والوعى يناهز العاشرة ، ولا يفوته أن يعى مايلى من تبدل الحال وتبدل الولاء وتقلب الناس مع السلطان والمال ثم تتساند الدولة الجديدة ويسطع فيها نجم الرشيد . ثم يذهب الرشيد والناس لم يتركوا الحديث عن المستخلفين الموعودين من أئمة العلويين ، ولكن الرشيد يقسم الدولة بين ولديه ويجعل للأمين ولاية العهد بعده ويجعل للمأمون ولاية المشرق برعاية أخيه ، فلا يمضى قليل حتى ينتقض العهد بين الأخوين ، ويعيش الشاعر على مقربة من قصر الملك ببغداد ، فيرى سيد القصر بين خاصته وجنده وذويه ، يتداولون تسليمه إلى عدوه مرة بعد مرة ، ويقتله من أوتمن عليه !

وكان الشاعر يذهب حيث ذهب فلا يلقى فى الرقعة الطويلة العريضة غير الثورة واشراطها ومقدماتها ، وقسم له فى مصر أن يشهد بوادرها وأن يعين واليها « الخصيب » على تسكينها ؛ فخاطب الشاغبين بأبياته التى يقول فيها :

منحتكم يا آل مصر نصيحتى ألا فخذوا من ناصح بنصيب
ولا تثبوا وثب السفاه فتحملوا على حد حامى الظهر غير ركوب
فان يك باق افك فرعون فيكم فان عصا موسي بكف « خصيب »
رماكم أمير المؤمنين بحية أكول لحيات البلاد شروب

ولم تكن هذه الثورة يومئذ إلا إلى عودة ، ولم تنقمع بعد عودتها إلا أن حشد المأمون جيوشه بقيادته ، ولم يعتمد فى قيادتها على أحد من ولاته والذين زاملوا أبانواس فى هذا العصر كثيرون ، فيهم الشعراء والأدباء ،

ومنهم الظرفاء والندماء ، ومنهم العلماء والحكماء ، ولكن أحداً منهم لم يبتل بمحنة العصر كما ابتلى بها ، وليس ذلك لأنه كان مستعداً للاباحة بتكوينه وتربيته وحسب ، بل لأنه عاش فى قلب التقلبات ولم يكن أثرها فيه مقصوراً على المعيشة فى الزمن ، فأبوه كان من جند بنى أمية وضاع رزقه فى الجيش الأموى بقيام الدولة الجديدة ، وأمه من الأهواز حومة القتال بين كل خصم وكل خصم ينازعه ، ومن جراء هذه المنازعات وحرمان زوجها الرزق الرتيب هاجرت من موطن قومها إلى البصرة ، وهذه البصرة كانت حومة أخرى للدعوة السياسية جهراً وسراً وبالإقناع والإرهاب ، فلما آن لوليد هذين الأبوين أن يفهم ويعقل فهم أن الدنيا كلها نفاق وشقاق ولم يعقل من أحداثها وخلائقها إلا أنها اباحة أو رياء

***

العصر الثقافى

وتصطلح على الفتى محنة العصر الثقافى ومحنة العصر السياسى فى ضربة واحدة ، فقد كانت مدن العراق يومئذ ملتقى كل ملة ومجتمع كل نحلة ، وكان يغشى البصرة والكوفة مجوس وزنادقة كما كان يغشاها أهل الهند والصين على اختلاف عاداتهم وشعائرهم ومطالبهم فى أوقات جدهم ولهوهم ، وكان من حوله مشتجر المذاهب حتى فى النحو والفقه بل الفلسفة وعلوم الكلام ، ومايجاورها أحيانا من حذلقة المتعالمين ودعاوى المتظرفين ،

وتعدى اللغط بالخلاف والجدال فى هذه المسائل طائفة المتأدبين والمتحذلقين إلى سواد الناس ممن يطلع فى الكتب الغريبة أو يطلع فى الكتب المأثورة أو لا يطلع على هذه ولا تلك ولا يرجع فى اعتقاده إلى اطلاع ...

فالإباحية التى نادى بها بابك الخرمي فى السنة الأولى من القرن الثالث للهجرة لم تفاجىء العراق ولا جيرتها من البلاد الفارسية ، ولكنها كانت نحلة يدين بها ألوف من العامة وسواد الناس فى شمال العراق ، ويتفلسف بها المتحذلقون من المتظرفين ليجعلوا لها محللا من الفكر والطبيعة كأنها تبالى الحلال والحرام ، وهى فى جوهرها تستبيح كل محظور . وقد هزم « بابك الخرّمى » جيشاً بعد جيش من أقوى الجيوش العباسية ، ولم يهزم قائد المعتصم الجبار ابراهيم ابن مصعب جموع الخرميين إلا بعد أن قتل منهم ستين الفاً وشتت أكثرهم فلبثوا فى انتظار الفرصة إلى حين ، ثم أغار عليهم جباره الآخر حيدر بن كاوس الأفشينى فطاولهم وطاولوه حتى ظفر بزعيمهم وساقه مع أهله أسارى إلى بغداد

ولم يقض أبو نواس سنة واحدة بعد خروجه من البصرة والكوفة إلا حيث ينغمس كما أسلفنا فى « قلب التقلبات » ولا يلامسها ملامسة « المعية » فى الزمن وحسب . فلما طلعت بوادر الثورة فى مصر كان هو ضيف الخصيب ونديمه ، ولما استفحلت الثورة فى عاصمة الدولة كان هو ضيف الأمين ونديمه ، ولما أقصاه الأمين عنه حذارا من وصمته كان ذو الرئاستين — داعية المأمون — يصف القوم جميعاً فيقول أنهم « أهل فسق وفجور وخمور وماخور . . »

بل كان رهط الزندقة قاطبة يقيم حيث قام أبو نواس

ومن آفات الإباحة فى العصر الثقافى مايصيب أبا نواس وأضرابه خاصة فيغريهم بالإباحة حيث لايغرى بها كل نابت فى ذلك العصر أو مطلع على مذاهبه الثقافية .

فالهوس بالإباحة - احتجاجا على نفاق العلية وأرباب المقامات - إنما يعترى أبا نواس وأضرابه لأنهم يرشحون أنفسهم بحكم ثقافتهم لأرفع المناسب وأشرف المجالس وأوجه المراسم . فهم أكفاء أهلها بالثقافة والدراية أو أرجح منهم كفاءة وكفاية ، ولكنهم يصدون عنها ويرون من أهلها الإحتجاز عنهم والاعتزاز عليهم بسمتهم ومهابتهم ، فلا يلمجهم شىء كما يلمجهم الولع بهتك ذلك الحجاز وتلويث ذلك السمت واستباحة ذلك الذمار .

فلا يعانى الوضيع الجاهل مثل هذا الدافع العنيف إلى استباحة الوقار الذى يتدثر به سادة المجتمع . ولا يعانى الوجيه العالم دافعاً مثله ؛ لأن وقار المجتمع وقاره وسيادة العرف سيادته . وإنما يعانيه أشد المعاناة وضيع يتسامى إلى الوجاهة بحقها ولايزال مذودا عنها ، منظورا اليه بين أهلها من علٍ وان ضارعهم فى مزاتبها ومراسمها

وعلى هذا الرفرف المضطرب بين الضمة والوجاهة كان أبو نواس :

لاحرمة له بين الحرمات فماله يغار عليها من الإباحة والإبتذال ؟!

ولا نعرف إسما أصدق من إسم الهوس يطابق ذلك الولع بعرض الإباحة والتحدى بها كما اشتهر بهما ابو نواس غير مزاحم فى هذه

الشهرة بين أبناء عصره .

فلا يكفى لإغراء المرء بهذا الوازع أن يكون صاحب مذهب فى الزندقة فقد يعتقد الزنديق استحلال المحرمات فيبيحها لنفسه ويقارفها سرا أو لا يعفت نفسه بالتستر والتجمل ، ثم لا يزيد على ذلك

ولا يكفى لإغرائه بذلك الوازع أنه يتحدى ذوى الوقار لأنهم يحتقرونه ويترفعون عليه بسمتهم وكبريائهم . فان المرء إذا تسامى إلى الرفعة ونبذه أهلها قد يضطر اضطرار المغيظ المحنق إلى هتك الستار عن ريائهم والاستخفاف بصيانتهم وهو يود لو لم تلجئه الضرورة إلى هذا المأزق المكروه ، وفرق بعيد بين هذا التحدى المستكره وبين ارتياح المرء إلى عرض الإباحة كأن العرض غرض مقصود لذاته ، وكأنه لذة أمتع من اللذات التى يستبيحها .

وقد كان أبو نواس يتقى من حسن السمعة مايتقيه الإنسان السوى من مذمتها ، وقد أشرنا إلى طرف من كلامه فى ذلك عند الكلام على النرجسية ، ونشير هنا إلى نادرة هى جماع النوادر فى هوى العرض وشهرة السوء ؛ رواها ابن منظور فى أخباره فقال ان اخوانا له أشاعوا « أنه تاب ونزع عما كان عليه من الفسوق والخمر ، فأقبل الناس يهنئونه ، فجعل يكذب ذلك ويقول : والله أنا شر مما كنت . فلما كثر ذلك عليه دعا بخمار يهودى غلام وأجلسه فى جانبه ومعه خمر ، فكلما جاء من يهنئه يقول لليهودى قبل أن يتكلم : صب لى من خمرك ؛ فيشرب قدحا ثم يقبل اليهودى ويقول للذى جاء يهنئه : قد رأيت صحة التوبة ! ثم قال فى ذلك :

قالوا نزعت ولما يعلموا وطرى ... فى كل أغيد ساجى الطرف ميّاس
كيف النزوع وقلبى قد تقسمة ... لحظ العيون ولون الراح فى الكاس
إذا عزمت على رشد تكلّفنى ... رأيان قدشغلا يسرى وافلاسى
فاليسر فى القصف واللذات أجلسها ... والعسر فى وصل من أهوى من الناس
لاخير فى العيش إلا فى المجون مع الأ ... كفاء والحور والنسرين والآس
ومسمع يتغنى والكؤس لها ... خب علينا بأخماس وأسداس
ياموري الزند قد أعيت قوادحه ... اقبس إذا شئت من قلبى بمقباس

فليس هذا ولع المتمذهب بزندقة ولا ولع المضطر على رغمه ، وانما هو هوس المغلوب على طبعه منحرفا عن الخلق السوى فى كمين هواه

والانحراف الوحيد الذى يفسر هـــذا المرض فى جميع أعراض هو النرجسية أو الغرام بالذات

فداء أبى نواس هو النرجسية بدخائلها وتوابعها وخفاياها وألوان شذوذها

وليس داؤه الشذوذ الجنسى بمعنى الشغف بابناء جنسه والأعراض عن المرأة . فانه لم يكن يعرض عن المرأة ، وليس الشذوذ الجنسى بهذا المعنى دافعا إلى الملانية والاباحة ، وعلماء الأمراض النفسية يدرسون حالتين من أحوال هذا الشذوذ لكل منهما أسبابها وعوارضها وعلاقتها بسلامة البنية إجمالا وبالغدد الصماء على التخصص ، ولكل منها كذلك ملابستها البيتية والاجتماعية ، فلا يتشابه الشاذ الفاعل والشاذ المنفعل بالملامح

والسمات ولا بالأخلاق وعوامل النشأة البيتية والاجتماعية ، ثم لايتشابهان فى العلاج النفسانى عند الأطباء المختصين

والقرائن التى تفسر إحدى الحالتين من الشذوذ لاتفسر الحالة الأخرى، بل لعلها تنافضها وتبطلها ، فلا يمكن أن يجتمعا إلا فى شذوذ واحد هو شذوذ النرجسية . بل يجتمع معهما فى النرجسية هوى المرأه وغير هذا الهوى، من العادات المريضة كالدلك أو جلد عميرة ، وقد كان أبو نواس أول من لهج به من الشعراء ونظم فيه لمناسبات لاداعى لاستقصائها . وهذا الدلك من أعراض المتعة النرجسية حيث يستخدم النرجسى خياله لتشخيص ذاته Autoerotic Gratification

وجملة القول أن هذه الآفة تفسر كل عادة من عادات الحسن بن هانىء وكل خبر من أخباره وكل نزعة من نزعاته : تفسر غرامه الفاعل والمنفعل، وتفسر غرامة بالنساء وكل ماعرف عنه من الشذوذات الجنسية ، وتفسر ولعه بالعرض والعلانية واستهتاره بسوء القالة . لأن هذا كله يتولد من تشخيص الذات بالصورة التى يستملحها النرجسى ويتخيلها فى خوالجه الجنسية ، ومن هيامه بالعرض والعلانية ولفت الأنظار إلى « الذات » وتقرير وجودها بالتحدى والمخالفة ، أو ما يسمونه فى التعبير الشائع بالمكايدة ، ويوشك أن يقصروه على الشواغل الجنسية دون غيرها

وكلما أمعن الباحث النفسانى فى دراسة هذه الشخصية بدأ له انها من كل وجه « شخصية نموذجية » فى بابها ، وأنها لقطة لا تظفر بها المشرحة النفسانية فى كل دراسة . ففيها أثر التكوين المولود وأثر البيت

وأثر البيئة الاجتماعية وأثر العصر من جانب السياسة وجانب الثقافة ولديها تثبت العلامات التي يتشكك فيها النفسانيون إذا طرأت منفردة متفرقة لا تتصل بالقرائن الاخرى فاذا اتصلت جميعا كما اتصلت فى هذة الشخصية النموذجية فهى أدل ما تكون على أعراضها وآفاتهـــا .

الشيطان

للشيطان تاريخ قديم مع الشعر ، وموقع متغلغل فى الدراسات النفسية ، وأولها دراسة الدخائل المرضية

فنحن نعلم من أدب الجاهلية قصة أولئك الشياطين الذين يصحبون الشعراء ويوسوسون لهم بدقائق المعانى وخفايا الأفكار التى لا ينفذ اليها الناس بغير معونة الجن . ونعلم من شعر النابغة ان الجن هى التى بنت لسليمان ابن داود هيا كل بعلبك كما قال .

الا سليمان اذ قال المليك له   قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيّس الجن انى قد أذنت لهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد

ولكن الشيطان هنا شيطان فنى أو أستاذ فنان لا شأن له بوساوس الضمائر ووساوس الأخلاق ، وكل شأنه أن يصنع ما يعجز الأنس عن صنعه لدقته أو ضخامته وفخامته ، وقد كان أرباب الفصاحة كما قال أبو العلاء :

. . كلما . . رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

هذا الشيطان « الفنى » لا يعنى أصحاب الدراسات النفسية ولا مدخل له فى الوساوس المرضية ، انما يعنيهم الشيطان « الاخلاقى » الذى يرمزون به لحالة من حالات الضمائر على سواء أو على عوج ، لأنهم يرمزون به أبدا لقيمة وجدانية تتشخص فى ضمير الانسان على نحو من الاحياء

وعلى هذا لم يكن الشيطان عندهم شيطانا واحدا بل عدة شياطين ، وهم يصاحبون الشعراء أيضا فى هذا المجال ، ولكن الآية فى هذا المجال معكوسة يقوم فيها الشعراء بصنع شيطانيهم على الصورة التى يتخيلونها... فكل شيطان هو بطل يصوره الشاعر كما يصور أبطال ملاحمه وتواريخه ، ويكاد كل شيطان من هذا القبيل أن يعرف باسم شاعره المختار

فهناك الشيطان رمز الكبرياء والتمرد، وقد صوره الشاعر الانجليزى ملتون Milton فى فردوسه المفقود وصوره الشاعر الايطالى Carducci فى نشيده إلى ابليس ، واجمع النقاد على أن الشاعرين قد صوراه مريدا متكبرا ثائراً لانهما عاشا فى إبان ثورة عنيفة فوضعا على لسانه الكلام الذى يريدانه ويخفيانه فى مضامين القول أو يعلنانه

ومع هذا الارتباط بين ثورة انجلترا وشيطان ملتون ، وبين ثورة ايطاليا وشيطان كردوتشى - يرى النقاد أن هذين الشيطانين نسخة مقتبسة من أقدم الشياطين المتمردين فى آداب العالم المحفوظ ، وهو الرب اليونانى القديم بروميثيوس Prometheus الذى تمرد على رب الأرباب زيوس ليعلم أبناء آدم ماأخفاه الأرباب عنهم ، ويتخذ من هؤلاء الآدميين تلاميذ له ومريدين

وملتون وكردوتشى مسيحيان ، ولكن النقاد يقولون أن الشيطان فى شعرهما أقرب إلى صورة بروميثيوس من الصورة التى مثلها العهد القديم لابليس الرجيم

وعلماء النفس يستنبطون من صورة بروميثيوس والنسخ المنقولة عنها

أن التمرد عريق فى طبيعة الانسان

وهناك عدا الشيطان الذى يرمز إلى التمرد والكبرياء شيطان يرمز إلى السحر والمعرفة الباطنية وهو مفستوفليس بطل رواية فوست من نظم جيتى شاعر الألمان

واسم مفستوفليس على الأرجح منحوت من ثلاث كلمات يونانية بمعنى الذى لايحب النور . لانه يتعلم المعرفة ويعلمها كأنها ضرب من التجسس فى الظلام على الأسرار الالهية ، فهو يلتمسها فى السحر والطلاسم ويجعلها ألغازاً يتولى حلها لمن يشاء

وهذا الشيطان كما صوره جيتى والشعراء من قبله - يصنع أكسير الحياة ليطيل به العمر ويرد به الشباب إلى الشيوخ ويساوم به على الضمائر والأرواح فمن باعه الحياة الأبدية أخذ بديلا منها المتعة والقوة والسيطرة بالمعرفة فى حياته الأرضية

وعند النفسانيين أن هذا الشيطان متمرد متكبر كذلك الشيطان ولكنه يتمرد بعقله من حيث يتمرد ذلك الشيطان بنفسه ، وسلاحه المعرفة من حيث يتسلح زميله القديم بالشجاعة الحربية

ولم يبتدع النفسانيون المحدثون هذه الفكرة بعلمهم الحديث، اذ الواقع أن الأقدمين من أهل الثقافة اليونانية أو العبرية كانوا يحسبون المعرفة كلها ضربا من التمرد والتطاول على علم الإله العليم . فاليونان الأقدمون كانوا يسمون هذا الفضول الانسانى بالهوبرى Hubris والعبرانيون الأقدمون كانوا يسمون الشجرة التى أكل منها آدم بشجرة المعرفة ولا يحمدون من

الانسان أن يتطاول إلى علم كعلم الاله

فالتمرد خلة مشتركة بين شيطان ملتون وكردوتشى وشيطان جيتى وقد فضل جيتى شيطان المعرفة لأنه كان فى عصر النهضة العلمية ببلاده ، وفضل الشاعر الانجليزى والشاعر الايطالى شيطان الغضب والتحدى لانهما كانا يغضبان ويتحديان ويمثلان ثورة الأمتين على سلطان الملوك وسلطان الكهان .

وتزاد على هاتين « الشخصيتين » الشيطانيتين صورة أخرى من قريحة شاعر شرقى ، يتخيلها فى بعض أحلامه ويرينا فيها الشيطان فاتنا وسيما يكذب بملاحته أقاويل أبناء آدم عن دمامته وقبحه ، لانهم مطرودون موتورون !

ذلك الشاعر الشرقى هو (السعدى) صاحب البستان والجلستان ، وأكثرهما مترجم إلى اللغة العربية

فمن قصائده تلك القصيدة التى يتحدث فيها عن حلم رآه كما زعم أو كما تخيل ، فيقول :

« رأيت الشيطان فى حلم . فياعجبا لما رأيت

« رأيته على غير ماوهمت ، من صورة شنعاء تخيف من ينظر اليها

« قامة كفرع البانة . عينان كأعين الحور . طلعة كأنها تضىء « بأشعة النعيم !

« قاربته وسألت : أحق أنت الشيطان المريد ؟ أحق ذاك ولا أرى « ملكا له جمال محياك ؟ ولا عين قد نظرت إلى شبيه سماك

« مابال أبناء آدم يتخذونك لهم ضحكة فيما يصورونك ؟

« وفى وسعك أن تجلوا لهم وجها كصفحة البدر ، ونظرة تتهلل بهجة
« الرضوان ؟ وابتسامة تشرق بالنعيم ؟
« أولئك ارسامون ببغضونك إلى العين ، وحمامات الأنس « تكشفك
« لنا فى صورة تنقبض لها الدلو !
« ويقولون لى : انك كالليل البهيم
« وما رأى أمامى إلا الصباح المنير

* * *

« سألت وتسمعت .
« فتحرك الحلم الساحر ، وترفع له صوت فخور
« ولاحت على طلعته كبرياء ، وقال :
« لا تصدق يا صاح أنه مثالى ذلك الذى رأيت فيما يمثلون
« فإن الريشة التى ترسمنى تجرى بها يد عدو حسود
« سلبتهم السماء ، فسلبونى الجمال . .

* * *

وهذه صورة للشيطان لا تستغربها من مصورها . . فقد كانت للسعدى طبيعة يمتزج بها التصوف بالحكمة العملية . وقد طاف الرجل أقطار المشرق وجاس خلال فارس والعراق والهند وعاش بين الوشايات وقصور الأمراء والوزراء ورأى أناسا بعد أن سمع عنهم وسمع عن أناس بعد أن رآهم ، فخرج من سياحاته وتجاربه وهو يعلم ما وراء الثناء وما وراء المذمة ، وشعاره

فى الحياة ألا تصدق كل مايقال » . . ولاشك فى أنه لم يصور الشيطان على تلك الصورة التى تخيلها أو حلم بها الا بعد أن رأى الشياطين من الأنس فى أجمل صورة وقاس الأمر بعقله فخطر له أن الشيطان خادع محتال وأنه لن يخدع الناس ويستهويهم بوجه يقابلونه بالنفور والاعراض

وتزاد بعد هذه الشخصيات الشيطانية المتباعدة أو المتقاربة شخصية أخرى يعدونها مثالا للشيطان الذى يحلمه الشاعر على صورته ، وذلك هو شيطان الشاعر الروسى لرمنتوف Lermentov الذى عاش فى أوائل القرن التاسع عشر وسمع من بعيد بمقدمات الفكر فى غرب القارة الاوربية

فهذا الشيطان الذى صوره لرمنتوف هو لرمنتوف بعينه مزيداً عليه مايتمناه ولا يناله لأنه إنسان ، فان الشيطان يتشكل بما شاء من الأشكال ويظهر للعيان أو يتوارى كما يشاء ، وقد يتوارى عن قوم ويبدو لغيرهم وهم فى مجلس واحد .

وهذا الشيطان مسكين معرّض للغواية باختياره ، فهو يحب فتاة من الإنس ويتراءى لها متجملا فى أبهج حلله فتهواه وتكاد أن تجفو خطيبها من أجله ، ثم يغار الشيطان من ذلك الخطيب فيقتله وينقل جثته إلى الفتاة لتوقن من وفاته وتنساه فتنقلب ، الآية وتحزن عليه حزنا يحجب عن عينها محاسن الحياة فتأوى إلى الدير وتنذر الرهبانية مدى الحياة . ويحن حنون الشيطان فيلاحقها ويتصدى له الملك الحارس عند باب الدير وتصطرع قوة الشر وقوة الخير فينهزم الملك وينتصر الشيطان ؛ وينفذ إلى حجرة الفتاة فيملك الجسد وتصعد الروح إلى السماء

ولم يتصرف لرمنتوف كثيراً فى نقل هذه الصورة من ذات نفسه ؛ ولم يبتعد بالحادثة كلها عن المكان الذى أقام فيه وهو يكتب القصة ، فقد أجراها فى بلاد القفقاز حيث كان يقيم منفياً مغضوباً عليه

هذه نماذج من الشياطين ، بين نموذج الشيطان المتكبر المتمرد ونموذج الشيطان الوسيم القسيم ونموذج الشيطان الساحر الساخر ونموذج الشيطان الخادع المخدوع

وقد كان أبو نواس كثير اللهج بذكر الشيطان ، كثير التعويل عليه فى غواياته ومغامراته ، فأى هذه الشياطين هو شيطانه « المختار ؟ » ... وأى أثر لشخصية أبى نواس فى شخصية ذلك الشيطان ؟

إن شيطان أبى نواس هو الشيطان الذى يريده أبو نواس ؛ أو هو الشيطان الذى يلزم أبا نواس

ففيه كل خلة من هذه الخلال بالقدر الذى ينتفع به أبو نواس : فيه التيه والخبث والمكر والحيلة والظرف على حسب الطلبة الموقوتة والحاجة العارضة ، وكأنه لم يخلق الا لأبى نواس خاصة ، ولا عمل له إلا أن يرضى ابا نواس ولو خالف مهمة حياته وهى الإغراء بالمعاصى والذنوب

فمن مهمة إبليس أن يغرى الناس بشرب الخمر ما استطاع ؛ ولكنه مطالب عند أبى نواس بأن يكف عنها عذاله ومن يترفع عن مشابهتهم إياه فى تعاطيها

ناديت إبليس ثم قلت له لاتسق هذا الشراب عذالى

وإبليس فى صورته عند أبى نواس تياه خبيث

عجبت من ابليس فى تيهه وخبث ما أظهر من نيته

وهو فى صورته عنده عليم فقيه يستفتيه فيفتيه

انى قصدت إلى فقيه عالم متنسك حبر من الأحبار
متعمق فى دينه متفقه متبصر فى العلم والأخبار
قلت النبيذ تحله فأجاب لا إلا عقاراً ترتمى بشرار
قلت : السماع فما علمت أجابنى الا بخفق العود والمزمار
قلت: المنادم من يكون؟ أجابنى لاتعدلن عن ماجن عيار
قلت: الصلاة فقال فرض واجب صل الصلاة وبت حليف عقار
أجمع عليك صلاة حول كامل من فرض ليل فاقضه بنهار
قلت الصيام فقال لى : لاتنوه واشدد عرى الافطار بالافطار

إلى اشباه هذه الفتاوى الابليسية

وهو عنده ظريف يعينه على فساده :

لم يرض ابليس الظريف فعالنا حتى أعان فسادنا بفساد

ولكنه فى كل اولئك ابليس خاص بابى نواس ، يخدمه على الطلب ويؤثره بالخدمة ويذلل له من يعصيه

فرده الشيخ عن صعوبته وصار قوادنا ولم يزال

وكأنما خلق إبليس لأبى نواس على تفصيل « المزاج النرجسى » الذى يتدلل ويتأبى ولا يملك إبليس إلا أن يجاريه فى دلاله وتأبيه

ولنستحضر القارىء صورة طفل مدلل يسوم أبويه ما يرضيه وما يغضبه حتى أى صورة يتمثله ؟

إنه إذا شاء أن يهدد أبويه أنذرهم لا يأكل الطعام ولا يشرب الدواء ولا يدخل الحمام حتى يرى مايشتهيه بين يديه ، وانه ليسوق الحران أحيانا فيرفض كل شيء ويلوى وجهه عن كل سلوى

أليس هذا هو أبا نواس بعينه حين يهدد إبليس وينذره :

إن أنت لم تلق لى المودة فى ... صدر حبيبي وأنت مقتدر
لاقلت شعرا ولا سمعت غناً ... ولا جرى فى مفاصل السكر
ولا أزال القرآن أدرسه ... أروح فى درسه وأبتكر

أليس هذا هو أبانواس بعينه وهو يزعم التوبة ويتجنى على إبليس فيأبى كل مايبذله له من شهوة ومتاع :

هل لك فى عذراء ممكورة ... يزينها صدر لها فخم
ووارد جثل على متنها ... أسود يحكى لونه الكرم
فقلت « لا » قال فتى أمرد ... يرتج منه كفل فعم
كأنه عذراء فى خدرها ... وليس فى لبته نظم
فقلت «لا» قال فتى مسمع ... يحسن منه النقر والنغم
فقلت «لا» قل فنى كل ما ... شابه ماقلت لك الحزم
ماأنا بالآيس من عودة ... منك على رغمك يافدم !

وينم أبو نواس على أخفى الخفايا بين جوانحه حين يعجب من تيه إبليس على آدم ثم خدمته لشهوات أبنائه ؛ أو بعبارة أخرى لشهوة إبنه أبى نواس خاصة .

عجبت من ابليس فى تيهه وخبث ما أظهر من نيقه
تاه على آدم فى سجدة وصار قواداً لذريته

أو على الأصح أنه صار قواداً « خصوصيا » لأبى نواس

فرده الشيخ عن صعوبته وصار قوادنا ولم يزل

فمن هنا ننتهى إلى عقدة العقد فى طوية الشاعر ، وقد أسلفنا أن مثله لا يتعرض كثيرا للعقد النفسية لأنه يبوح برذائله ولا يكتم أقبحها وأفضحها فلا سبيل للعقد النفسية إلى طويته من قبل هذه الرذائل ، ولكن مشكلة النسب المدخول هى العقدة التى غلبته فكانت من دوافعه الى إدمان الخمر ومن بواعث الاحتيال عليها بالحيل الملتوية التى يصطنعها « مركب النقص » فى أمثال هذه المشكلة

فماذا يفخر الفاخرون بالآباء من الآدميين قاطبة أكثر من أنهم أبناء آدم ؟ ... ومع هذا يتيه إبليس على آدم ولا يتيه على إبنه « أبى نواس » خاصة حين يخدمه ويكاد يفرغ لخدمته قبل سواه

بل مع هذا أبى إبليس أن يسجد لآدم ولا يأبى أن يسجد للحسن ابن هانىء كما جاء فى حديث والبة . « ترى غلامك الحسن بن هانىء؟ قلت ماشأنه ؟ قال . إن له لشأنا ، فوالله لأغوين به أمة محمد ؛ ثم لا أرضى حتى القى محبته فى قلوب المرائين من أمته وقلوب العاشقين لحلاوة شعره . قال والبة : فعلمت أنه إبليس فقلت . فما عندك ؟ قال عصيت ربى فى سجدة فأهلكنى ، ولو أمرنى أن أسجد لهذا الف سجدة لسجدت »

وروايه القصة على هذا النسق البق رواياتها بسياقها ، وسواء كان والبة

قد أوحاها إلى غلامه أو كان غلامه قد أوحاها اليه لقد رسخت فى ذهن الغلام وأعجبته وارتفعت به فى هواجس أحلامه وأمانيه إلى الغاية القصوى من الفخر بالآباء ، وهل بعد آدم غاية يرتفع اليها إبنا . آدم وحواء ؟

* * *

ويدعونا الكلام عن الشيطان وعقدة الأب أو النسب إلى استطراد فى مذهب « فرويد » حول هذا الموضوع ، يدور على قصة مصور من أبناء القرن السابع عشر فقد أباه وحالف الشيطان ودفعته إلى هذه المحالفة الشيطانية تلك العقدة النفسانية التى يسميها فرويد بعقدة أو ديب ، ويقول فى شرحها إنها عقدة تتولد من حب الطفل لأمه وغيرته عليها من أبيه ، ويكاد فرويد يزج بهذه العقدة فى تعليل التاريخ الإنسانى من أوله غير قانع باستخدامها فى تعليل المسائل الفردية والأزمات الوجدانية التى تعترى هذا وذاك من حين إلى حين

وعقدة اوديب فى رأينا لا تؤخذ جملة ولا ترفض جملة . إذ ليست كل غيرة على الأب غيرة جنسية . وبخاصة حين تكون الأم هى كل شىء فى حياة الطفل الرضيع فيغار عليها غيرة على حظوته وغيرة على طعامه وغيرة على سلامته وغيرة على كل شىء يحسه ويدركه ، وقد رأينا كلابا تغار من كل شىء يعنى به صاحبها ومن كل أحد يدلله أمامها ، ولا تختلف هذه الغيرة باختلاف الذكورة والأنوثة ولا باختلاف الحياة والجماد ، وإذا كان الجنس يفسر كل شىء على رأى فرويد فهو لا يفسر شيئا على الإطلاق ولا يميز لنا بين دافع ودافع من دوافع الحياة

ومن ضعف مذهب فرويد فى هذه النقطة أنه يفترض حينا أن الطفل الذكر يغار من أبيه على أمه ويفترض حينا آخر أنه يغار من أمه على أبيه ويحب أن يستأثر بالأب استئثارا جنسيا كاستئثار الزوجة بالزوج، ثم لا ينجح أقل نجاح فى التفرقة البيولوجية « الحيويه » أو النفسية بين الطفل الذى يغار من أبيه على أمه والطفل الذى يغار من أمه على أبيه

وهذا الشطط فى تعليلات فرويد وتخريجاته يعيب عليه تلاميذه قبل العلماء المعارضين له فى أساس مذهبه فيرى أدلر Adler أن عقدة أوديب ليست غريزة أساسية تستقر فى الوعى الباطن لكل وليد، وانما هى ميل عارض يحدثه سوء التصرف من بعض الآباء وبعض الأمهات . ويرى ينج Jung أن الطفل لا يدرك فى أمه صفة جنسية وأن « عقدة أوديب » انما تستحكم عند مفارقة الفتى لبيت الأسرة الذى عاش فيه بين أبويه فان لم تشغله فى هذه الآونة وشيجة روحية لجت به علاقته بالبيت ولم يستطع أن يغفل عن الفارق بين جو الأسرة بحنانه وعطفه وجو العالم الخارجى بقسوته وعنفه، ودارت نفسه حول شعوره بأمه أو شعوره بابيه . وقد وضع « ينج » عقدة « الكترا » Electra إلى جانب عقدة « أوديب » خلال تفسيره لما يشاهد من ميل البنات إلى الآباء وميل البنين إلى الأمهات

أما سليفان Sullivan فلعله أكثرهم توفيقا فى تفسيره لحب البنات للاباء وحب البنين للامهات . فانه يرد ذلك إلى سلوك كل من الأبوين نحو الطفل المخالف لجنسه . فالأب لا يتدخل مع بناته فى الخصوصيات والأم لا تتدخل مع أبنائها الذكور فيما يقابل هذه الخصوصيات عندهم ويؤدى

هذا إلى استخفاف البنات لوطأة الآباء وشعورهن بالامان معهم، كما يؤدى إلى استخفاف البنين لوطأة الأمهات وشعورهم بالأمان معهن ، وإذا شاب هذا الشعور مس خفيف من النظرة الجنسية فهو عارض لا يتعمق إلى مكمن الغرائز فى باطن كل إنسان

فعقدة أوديب قابلة للتفسير بتخريجات كثيرة غير العاطفة الجنسية وهى فى القصة التى نسرد خلاصتها صالحة للمقارنه بين بطلها وبين أبى نواس ، لانها تشتمل على عقدة الأب ومخالفة الشيطان وبطلها فنان يتعاطى الخمر ويكثر منها أحيانا فتتجسم أمامه الرؤى والأشباح

تناول فرويد موضوع هذه القصة فى تقرير مفصل كتبه سنة ١٩٢٣ وبناه على وثيقة مأخوذة من دار المحفوظات الامبراطورية بمدينة فينا فحواها أن المصور كريستوف هايتزمان من أهالى بافاريا عاهد الشيطان وكتب معه عقدا موقعا بالمداد الأسود ثم عقدا موقعاً بالدم على أن يبيعه روحه ويسعد بمعونته. وحدث ذات يوم (٢٩ أغسطس سنة ١٦٧٧) ان هذا المصور كان يصلى فى الكنيسة فسقط مصروعا وحمى به إلى الأسقف فاعترف له بتلك المعاهدة وتوسل اليه أن يسأل السيدة العذراء أن تعتقه من أوهاق الرجيم وتسترد منه الوثيقة التى تسلط بها عليه . ثم رأى المصور بعد فترة قضاها فى التوبة والتكفير ان الشيطان جاءه بوثيقة الدم وحفظ عنده وثيقة المداد الأسود ، فشفى من داء الصرع برهة ثم عاودته النوبات وتمثلت له فى خلالها الأطياف المقدسة من عليين ، ووقع فى روعه انها لا ترضى عنه مابقيت فى حوزة الرجيم تلك الوثيقة السوداء

ويستدل من الأوراق المحفوظة على سر هذه المعاهدة ، وهو حالة اليأس والهبوط التى استولت على الفتى بعد فقد أبيه فحرمته لذة الإقبال على العيش ، ثم حرمته فوق ذلك قدرته على اتقان فنه فاضطربت موارد رزقه وغامت على عقله غيمة الخوف والتشاؤم ، وظهر له الشيطان فى ابان هذه الأزمة فساومه على روحه وأطمعه فى رد كل مافقده من بشاشة العيش وبراعة الفن ، فانقاد له ولكنه رفض ما عرضه عليه الشيطان من العلم بطلاسم السحر والمتعة بالمسرات والأموال ، ولم يطلب منه الا طلبة واحدة . وهى أن يكون ابن جسده وأن يندمج فيه روحا وبدنا ، بعد تسع سنين وأن يحل فى خلال هذه السنوات التسع محل أبيه

وللقصة حواشى متفرعة لخصها فرويد فى رسالته وعلق عليها فكان موفقا فى جوهر تعليقاته .

قال إن عجز المصور عن اتقان فنه بعد وفاة أبيه إن هو الا طاعة مرجأة Deferred Obedience لان أباه كان ينهاه عن الاحتراف بهذا الفن فعصيه اثناء حياته وغام عليه تبكيت الضمير بعد موته فنفر من هذا الفن وعزفت منه نفسه وتعذر عليه اتقان صوره ، فكسدت سوقه وبارت تجارته وثقلت عليه أعباء العيش وتبكيت الضمير فساورته الأوهام وود الخلاص وهو يؤمن كغيره من أبناء القرون الوسطى بقدرة الشيطان على السحر والطب ، فخيل اليه الوسواس أنه عاقده واعتمد على سنده ، وشخصه فى صورة أبيه لذى يحنو عليه ويرعاه

قال فرويد مافحواه أن شعور الإبن بابيه — ولا سيما الابن المختبل كهذا

المصور ـ هو شعور مزدوج متقابل Ampivalent يريه أباه فى صورة الحامى المودود وفى صورة العائق المخيف معا ، فهى صورة تلتبس فى باطن السريرة بصورة الشيطان المقتدر المرهوب ، وما كان الشيطان عند ذلك المصور الا بديلا من أبيه لا يبغى منه الا الحماية والانقاذ

والقصة فى جملتها تغرى بالمقارنة بين هذا المصور وأبى نواس ، فكلاهما فنان وكلاهما يعافر الخمر وكلاهما يحالف الشيطان على نهجه

والاغراء بالمقارنة يأتى من أوجه الشبه ومن أوجه الاختلاف بين « الشخصيتين »

فأبو نواس لا يشعر بالكبت قلم يصبه الخبل ولا يثقل عليه نهى أبيه عن مزاولة فنه ؛ فلم يعجز عن قرض الشعر فى حياة أبيه ولا بعد موته

إلا أن الواضح من سيرة أبى نواس أن الشيطان كان بديلا عنده من المعلم لا من الاب . وكان كل من معلميه الذين طالت عشرتهم له فى صباه فاسقاً شاذا يتخذ معه شكل الشيطان فى تعليمه اياه الفجور والانقياد للشهوات ؛ فوالبة بن الحباب معلمه الشعر زنديق ماجن ؛ وبدر الجهنى البراء معلمه المطارة على هذه الخليقة من الفجور والمجون ؛ وقد تقدم فى الفصل السابق أن التلميذ الرجسى يتوق إلى أستاذ يكون عنده بمثابة العزيز المدلل Pet ويتطلع إلى مكانة خاصة لديه فهذا الشيطان الذى كان أبو نواس يسميه شيخة هو بديل الأستاذ حين شب عن طوق التتلمذ على والبة الشاعر وبدر المطار

ولو كان أبو نواس يعاقد الشيطان سرا لاختبله الوسواس الذى اختبل المصور وأوقع فى روعه أنه هالك مابقى فى يد الشيطان ذلك العقد الموقع بالمداد الاسود وذلك العقد الموقع بالدم . ولكن أبا نواس كان يحالف الشيطان ويجهر بمحالفة وكان يلعنه ويحسب ان اللعنة هى التحية المحببة اليه فسلم من الخبل بالعلانية وإن لم يسلم من كل عقدة نفسية تتعلق بالنسب كما سنرى فى بيان العقدة التى ألجأته إلى ادمان السكر والهيام بالخمر هيام المتهوس المفتون

الخمر

نكرر هنا ان طبيعة أبي نواس لم تكن من الطبائع التي تتسلل إليها العقد النفسية ، لأنه كان يبوح برذائله ويتكشف بها ويتعمد أن يجبه الناس بها علانية ، وإنما تكمن العقدة النفسية في طوية الإنسان أو تتسلل إليها من الكبت وطول الكتمان .

إلا عقدة واحدة هي الاستثناء لهذه القاعدة ، وهي عقدة الإدمان .. فقد كان إدمانه الخمر هوساً ولم يكن مجرد عادة او لذة ذوقية ، ولا بد وراء كل هوس من عقدة نفسية .

فما هي هذه العقدة التي أصابت نفسا محصنة من العقد فتلبثها ولم تفلح فيها إباحته ولا العلانية التي عاش فيها من طفولته إلى ختام عمره .

أنها غلبته لأنها جاءته من قبل طبيعته ؛ ونعني بها الطبيعة النرجسية .

فهي الطبيعة التي تزين للنرجسي عادات العوض والظهور ، وهذه العقدة النفسية ليست مما يتقبل العرض والظهور ، لأنها مهينة لصاحبها مذلة له بين قومه ، وهي خسة النسب في عصر الأنساب والأحساب .

وربما خطر لبعضهم أن إنسانا مثل أبي نواس في مجونه واستخفافه لا يعبأ بمثل هذه العقدة ولا يتحرج منها وهو لم يتحرج قط من منكر أو رذيلة . لكنه عند النظر إليه خاطر خاطىء لا يثبت على التأمل والمراجعة . فان احتمال الهوان يهدم النرجسي ولا يبقي له بقية يعتصم بها . وأما احتمال

اللام والنقد فقد يجارى طبيعته إذا كان فيه معنى التحدى ولفت الأنظار، وقد يهزأ النرجسى باللام والنقد مع علمه برياء اللائمين وتذبذب الناقدين واعتقاده أنهم مثله فى الفجور وإن خالفوه فى الظهور .

وينبغى أن نعرف قوة هذه العقدة النفسية فى زمان أبى نواس خاصة قبل أن نعرف السر فى غلبتها عليه وعلاجه لها بإدمان السكر والتهافت على عشرة الندماء .

فالعصر الذى عاش فيه أبو نواس كان معترك الأنساب والأحساب بين كل إنسان وكل إنسان فى الدولة الإسلامية .

هب فيه الشعوبيون يفاخرون العرب ولا يعترفون لهم بفضل غير فضل النبوة ؛ ثم يغمزون فضلهم هذا بتعييرهم بما جنوه على عترة النبى عليه السلام ومفاخرتهم إياهم بانتصارهم لتلك العترة وتشيعهم لآل البيت من العلويين والعباسيين ؛ ولم يزل هؤلاء الشعوبيون يفخرون على العرب بالحضارة والصناعة والترف والكياسة حتى قال قائلهم : لا يفلح العربى إلا ومعه نبى يوحى إليه .

والعرب أنفسهم كانوا فيما بينهم يتنازعون الفخار بين قحطان وعدنان أو بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وكانت كل قبيلة من القحطانية تفاخر القبائل الأخرى بالكثرة والعزة وسوابق التاريخ ومكارم الآباء والأبطال ؛ وكذلك كانت تفعل كل قبيلة من قبائل العدنانيين .

بل كان أبناء البيت النبوى العلويين والعباسيين يتنافسون على شرف النسب ويرى أبناء العباس لإخوتهم شرفا لا يرونه لأبناء على، لأن العباس

عم وعليا ابن عم . فيقابلهم أبناء على بالانتماء إلى فاطمة الزهراء ، وهى بنت النبى عليه السلام .

وتكاد لا تسمع بأحد فى ذلك العصر إلا سمعت حوله بفخر نسبه أو بمنازعة له عليه ، ولا استثناء فى ذلك للخلعاء المتبذلين بل لعلهم أحرص على دعوى النسب من غيرهم على سبيل التعويض والعزاء .

فهذا والبة بن الحباب أستاذ أبى نواس لم يهبط أحد إلى حضيض المهانة والزراية كما هبط بين سواد الناس وبين زملائه من الشعراء والأدباء ، وكان مع هذا يستطيل عليهم بنسبه العربى ويدعو شاعراً كأبى العتاهية إلى هجوه وإنكار نسبه والنزول به إلى طبقته ، أى طبقة الموالى المعترفين بحرمانهم من عراقة النسب ومن الأصالة العربية . فيقول له فيما قال :

وابن الحباب صليبةٌ زعموا ومن المحال صليبة أشقر

ويقول :

هلم إلى الموالى الصيد فى سعة وفى رحب
فأنت بنا — لعمر الله — أشبه منك بالعرب

وقد تلخص هذا الشغل الشاغل بالنسب فى ذلك العصر حقيقة مشهورة فى علم الانساب ، وهى ظهور أول كتاب عن الأنساب فى تلك الفترة لإمام النسابين ابن الكلبى صاحب جمهرة الأنساب المتوفى حوالى سنة خمس ومائتين للهجرة ، وقد ظهر فى مدينة الكوفة وهى من بيئات أبى نواس . ذلك هو بلغ شغلان العصر بالنسب وهو المهم فى هذا الصدد ، لأنه

---

(١) صليبة أى عربى قح

هو مقياس قوة العرف فى هذه المسألة التى تمتحن بها طبيعة أبى نواس ، وكلها تشوف إلى العرض والظهور .

أما مبلغ شغلان أبى نواس بها فهو من التواتر والتواطؤ بين الشواهد والأعراض بحيث تكفى فيه الاشارة دون الأسهاب .

فلا خفاء بلهفة أبى نواس على النسب العربى يتلمسه تارة فى هذه القبيلة وتارة فى غيرها من اليمانية أو النزارية حيثما اتفق مقامه وتفتحت له أبواب الدعوى والانتماء ، وما كان هو يكره أن يفخر فى الحانات بالنسب لو سلم له هذا الفخر بين أربابه المسلم لهم بحقه ، فمن شعره فى الخمريات ذلك الحوار الذى دار بينه وبين الخمار يسأله عن نسبه ويجيبه :

وخمار طرقت بلا دليل ... سوى ريح العتيق الخسروانى
فقام إلى مذعورا يلبي ... وجوف الليل مثل الطيلسان
وقال : أمن تميم ؟ قلت كلا ... ولكنى من الحى اليمانى

وأشد من ذلك إبانة عن هذه اللهفة المطوية فى قرارة نفسه أنه كان يهجو فلا يقع على هجاء لأحد أقبح من الأصل الخسيس كما قال للرقاشى :

والله لو كنت جريراً لما ... كنت بأهجى لك من أصلكا

وكما قال للهيثم بن عدى :

الحمد لله هذا أعجب العجب ... الهيثم بن عدى صار فى العرب

وأدق منه فى الأبانة عن طوية الشاعر قولة لحمدان بن زكريا :

ماأنت بالحر فتلحى ولا ... بالعبد نستعتبه بالعصا

فرحمـــة الله على آدم رحمة من عم ومن خصصا

وموضع الدقة الذى نعنيه هنا وثوبه النسب إلى أبى الآباء آدم ، وهو الذى عجب الشاعر لأن ابليس يتيه عليه ولا يتيه على ذريته ، وداخله الوهم أن ابليس قد أبى له السجود ولا يأبى السجود لابنه أبى نواس ألف سجدة

وربما كان أشد من ذلك أبانة عن لهفته على النسب أنه يمدح خليفة يتسع للشاعر مجال تعظيمه وتمييزه بالصولة والنعمة والسجايا والسمات ماصدق منها وما كذب فلا يرى مدحاً له ابلغ من نسبه :

أبوك الذى لم يملك الأرض مثله وعمك موسى الصفوة المتخير
وجدك مهدىّ الهدى وشقيقه ابوامك الأدنى أبو الفضل جعفر
ومن مثل منصوريك منصور هاشم ومنصور قحطان اذا عد مفخر
فمن ذا الذى يرمى بسهميك فى الملا وعبد مناف والداك وحمير

وفى مقطوعة غير هذه يقول فى هذه المعنى :

رضينا بالأمين عن الزمان فأضحى الملك معمور المغانى
تمنينا على الأيام شيئا فقد بلغتنا تلك الامانى
بأزهر من بنى المنصور تنمى اليه ولادتان له اثنتان
وليس كجدتيه أم موسى إذا نسبت ولا كالخيزران
له عبد الميدان وذو رعين كلا خاليه منتخب يمانى
فمن يجحد بك النعمى فانى بشكرى الدهر مرتهن اللسان

وتنطوى هذه اللهفة فى نفس انسان لم تكن المهانة هينة عليه بل كان تياها بطبيعته « الترجسية »

لقد زادني تيها على الناس انني أراني أغناهم وأن كنت ذا عسر

وكان يهتبل الفرصة للتعالى على الذين يتعالون عليه فكان يجلس حيث جلس ويتلقى التحية من القادة والرؤساء فلا ينهض لواحد منهم. ولم ينهض لأحد حياه غير أبي العتاهية . . . وفى هذا أيضا دلالة على دخيلة نفسه من هذا الجانب!. فقد كان أبو العتاهية من الموالى وكان فى شبابه على زى المخنثين وكان هو معاصره الوحيد من الشعراء الذى صافاه ولم يقاطعه أو يترفع عنه ونكاد نرى أن انتمائه إلى والبة فى صباه انما كان لدخيلة كهذه الدخيلة. فان والبة كان مطعونا فى نسبه وكان أبيض كأبى نواس - او أشد بياضا وأبوه أسود كأنه زرزر كما قال أبو العتاهية :

مالى رأيت أباك أسود غر بيب القذال كأنه زرزر
وكأن وجهك حمرة رئة وكأن رأسك طائر أصفر

وقد تناقضت علاقة الشاعرين بوالبة . فأبو العتاهية يهجوه لانه مثله فى عقدة نفسه وأبو نواس يألفه لأنه مثله وفى محاوله الخلاص من شبهة نسبه ونعتقد أن أبا نواس انما تشبث بالكنية وترك اسم ابيه فرارا من هذا النسب المدخول. فهى مناط الدعوى عنده ولم يكن نسبه الصحيح إلا مسبة له من السفلة والعلية من السواء

كانت الجارية عنان تريد النكاية به فتذكر له اسم أمه جلبان ، وكان الخليفة الأمين يسبه فيذكر له اسمها الاخر « شحمة » وكان أبان ومن لف لفه من الشعراء يهجونه فيسمون أباه « هنيا » أو النساج المقتر على حريفه وما شاكل ذلك من المثالب التى كان يعيى الجواب عنها على تعجله بالهجاء حين

يشاء . فلا جرم تساوره العقدة فلا يجد لها حلا فى غير الادمان

***

وللمؤرخ النفسانى أن يكتفى بما تقدم للابانة عن شدة اهتمام العصر بالنشب وشدة اهتمام أبى نواس به فى عشرته لكل طبقة من طبقات المجتمع الذى احتواه . الا اننا نرى على الدوام أن ديوان الشاعر أصدق ترجمة لحياته الباطنية ، ويصدق هذا على أبى نواس كما يصدق على سائر الشعراء المطبوعين وهو أصدق مايكون على خمرياته التى تفيض بدلائل العقدة النفسية ومركب النقص الذى يساووه من انتسابة إلى كل من أبويه

فهو يشرب الخمر لانها شراب الملك أو الشراب العريق الذى عاش مع أجداد الاكاسرة والقياصرة وقبل مدار النجوم

تحيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

وهو يستريح إلى شربها حيث لا فخار بالآباء والاجداد وبين الندامى الذين يهابونه ويتذللون بين يديه

وإذا أنادم عصبة عربية بدرت إلى ذكر الفخار تميم

. . . .

وبنو الاعاجم لا أحاذر منهم شرا فمنطق شربهم مذموم

وجميعهم لى حين أقعد بينهم بتذلل وتهيب موسوم

وجنونه المتسلط عليه أن يفتتح كل خمرية أو بتخللها بالنعى على الطلول والرسوم ومن يذكر الطلول والرسوم ، ومن ذاك ولا نحصيه

لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلة كانت تحل بها هند وأسماء

حاشا لدرة أن تبنى الخيام لها ... وأن تروح عليها الابل والشاء
له بكيت كما يبكى النوى رجل ... على المعالم والاطلال بكاء

ومنه :

أعرض عن الربع ان مررت به ... واشرب من الخمر أنت أصفاها

ومنه :

أيا باكي الاطلال غيرها البلى ... بكيت بعين لا يجف لها غرب

ومنه :

دع الاطلال تسقيها الجنوب ... وتبكى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضا ... تحث بها النجيبة والنجيب

. . . . . .

ولا تأخذ عن الاعراب أرضا ... ولا عيشا فعيشهم جديب
فأين البدو من إيوان كسرى ... وأين من الميادين الدروب

ومنه .

دع الربع ما للربع فيك نصيب ... وما أن سبتنى زينب وكعوب
ولكن سبتنى البابلية أنها ... لمثلى وأن طال الزمان سلوب

ومنه :

عدّ عن رسم وعن كثب ... واله عنه بابنة العنب

ومنه :

يأيها العاذل دع ملحاتى ... والوصف للوماة والقلاة

ومنه .

سقيا لغير العلياء فالسند وغير أطلال مي بالجرد

ومنه :

لاتبك رسما بجانب السند ولا تجد للدموع بالجرد

وبيت القصيد من هذا الهوس بالنعى على الرسوم والطلول إنما هو الإزراء بأهلها وبعيشهم وفخارهم الذى عز عليه أن يجاريهم فيه، والإشادة بالخمر التى لا يدرك الكفاءة لها كل شارب، ولا يسمو الشاربون لها إلى مثل شمائل أبو نواس .

عاج الشقي على رسم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد

يبكى على طلل الماضين من أسد لادر درك قل لى من بنو اسد؟

ومن تميم ومن قيس ولفهما ؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد

نعم كل الأعاريب من شمال أو جنوب ، وما يفخرون به من حسب حسيب وعيش جديب !

وأحياناً ينقل هذه النفرة من مفاخر القبائل والأنساب إلى لسان الخمار الذى يقصد إليه :

فقلت له ما الاسم قال سمو أل على أننى أكنى بعمرو ولاعمرا

وما شرفتنى كنية عربية ولا ألبستنى لائماء ولافخراً

لاجرم تصبح المنادمة قرابة تغنى عن قرابة النسب بين أناس لايتفاخرون ولا يتعاظمون :

فذلك ماحييت له وإنى ابر بمثله من والديه

* * *

ورابعها فللندمان حق سوى حق القرابة والجوار

ولم يخف على أحد من أبناء عصره ما كان يعنيه بالإنحاء على الطلول وباللجاجة فى هذا الإنحاء ، ولم يكن هو يخفى مقصده منه وهو يتبعه بالإنحاء على الأعراب من كل قبيل ، ويقابل بين الخيام وإيوان كسرى ، وبين الزروب والميادين ، فلهذا نهاه الخليفة عن الاستمرار فى هذه اللجاجة وأمره بوصف الطلول فقال :

دعانى إلى وصف الطلول مساط لقد ضقت ذرعا أن أجوز له أمرا

فليس اللهج بالنعى على الطلول دعوة إلى الجديد كما يتراءى من النظرة السطحية إلى ظاهر العبارة . ولم يأمره الخليفة بالكف عنه لأنه تجديد ينكره ، ولكنه فهمه على معناه الذى لا يفهم سواه من هذا التهوس بتحقير الأطلال وأهل الأطلال ، وخشى منه مغبته بين القبائل المتحفزة فى تلك الآونة ، فنهاه عنه نهياً عن هجاء سياسى لا تحمد عقباه .

وبعد فهل كان أبو نواس يتجنب بكاء الاطلال ايثارا للتجديد أو إيثاراً لمذهب كائنا ما كان من المذاهب الفنية ؟ كلا . فانه لم يدع إلى تجنبها إلا ليستطرد من ذلك إلى النعى على أهلها ومفاخر انسابها .. والاقطالعه فى بكاء الاطلال والديار تزيد على مطالع الشعراء من معاصريه أو المتقدمين عليه، وهذه بعض تلك المطالع المتكررة

قال فى أحدها :

هل عرفت الربع أجلى أهله عنه فزالا

وقال فى مطلع آخر :

ألا حى أطلال الرسوم الطواسما عفت غير سفع كالحمام جوائما

وفى مطلع آخر :

لمن طلل لم أشجه وشجانى وهاج الهوى أو هاجه لأوان

وفى مطلع آخر :

ألا لا أرى مثلى امترى اليوم فى رسم تعرفه عينى ويلفظه وهمى

وفى مطلع آخر :

لمن الديار تسربلت ببلاها نسيتك ربتها وما تنساها

وفى مطلع آخر :

هل لديار حييتها درس من صمم ماهتفت أو خرس

وفى مطلع آخر :

غننا بالطلول كيف بلينا واسقنا نعطك الثناء الثمينا

وفى مطلع آخر :

ألا حى اطلالا بسيحان فالعذب إلى برع فالبئر بئر أبى زغب

وفى مطلع آخر :

ألم تربع على الطلل الطماس عفاه كل سحم ذى ارتجاس ؟

فالاطلال لا تهمه إذن الا ليستطرد منها إلى عقدته وإلى التنفيس عنها بالخمر كلما رمت بمفاخر النسب من تميم ومن قيس ومن أسد . . . وليس الاعاريب جميعا عند الله من أحد . .

ومنادمة الخمر هى « الوجاهة » التى يسمو بها الشاعر على النظراء وهى التى تنفث فيه الزهو والفخار بديلا من زهو السادة الاصلاء وفخار الأبناء والآباء .

* * *

المسافر الملول إلى عدد الفراسخ والمراحل التى خلفها وراءه ، وكثيرا مالغط قراؤه بما أراده من احصاء هذه الأيام ولامراد له غير السرور بفواتها وعدها وهى تنقضى وتنصرم وهو يشعر بعدها « بالوجاهة النرجسية » لانه لم يكن كذلك البخيل الذى طول الدهر عليه

ومن كلامه فى هذا الغرض ذاك البيت المشهور :

أقمنا بها يوما ويومين بعده ويوما له يوم الترحل خامس

ومنه :

تترك المـــــرء إذا ما ذاقها يرخى الإزارا
ويري الجمعـــــة كالسبت وكالليـــــل النهارا

ومنه :

فلم نزل فى صباح السبت نأخذها والليل أجمعه حتى بدا الأحد
ثم ابتدأنا الطلا باللهو من أمم فى نعمة غاب عنها الضيق والنكد
حتى بدت غرة الإثنين واضحة والسعد معترض ، والطالع الأسد
وفى الثلاثاء أعملنا المطى بها صهباء ما فرعتها بالمزاج يد
والأربعاء كسرنا حد سورتها والكأس يضحك فى تيجانها الزبد
ثم الخميس وصـــلناه بايلته قصفاً وتم لنا بالجمعـــة العدد

ويلحق بهذا طى الشهر والشهرين بين حانات القفص وقطربل كما حدثوا فى بعض خرياته أنه أقام بقطربل من أول يوم فى رجب إلى آخر يوم فى شعبان ثم عاد ليشرب قبل أن تثبت رؤية الهلال ، ونسبوا اليه أنه قال

لو شئت لم نبرح من القفص نأخذها صـــفراء كالجص

وفى مطلع آخر :

لمن طلل لم أشجه وشجانى وهاج الهوى أو هاجه لأوان

وفى مطلع آخر :

ألا لا أرى مثلى امترى اليوم فى رسم تعرفه عينى ويلفظه وهمى

وفى مطلع آخر :

لمن الديار تسربلت ببلاها نسيتك ربتها وما تنساها

وفى مطلع آخر :

هل لديار حييتها درس من صمم ماهتفت أو خرس

وفى مطلع آخر :

غننا بالطلول كيف بلينا واسقنا نعطك الثناء الثمينا

وفى مطلع آخر :

ألا حى اطلالا بسيحان فالعذب إلى برع فالبئر بئر أبى زغب

وفى مطلع آخر :

ألم تربع على الطلل الطماس عفاه كل سحم ذى ارتجاس ؟

فالاطلال لاتهمه إذن الا ليستطرد منها إلى عقدته وإلى التنفيس عنها بالخمر كلما رمت بمفاخر النسب من تميم ومن قيس ومن أسد . . . وليس الاعاريب جميعا عند الله من أحد . .

ومنادمة الخمر هى « الوجاهة » التى يسمو بها الشاعر على النظراء وهى التى تنفث فيه الزهو والفخار بديلا من زهو السادة الاصلاء وفخار الأبناء والآباء .

* * *

المسافر الملول إلى عدد الفراسخ والمراحل التى خلفها وراءه ، وكثيرا مالغط قراؤه بما أراده من احصاء هذه الأيام ولامراد له غير السرور بفواتها وعدها وهى تنقضى وتنصرم وهو يشعر بعدها « بالوجاهة النرجسية » لانه لم يكن كذلك البخيل الذى طول الدهر عليه

ومن كلامه فى هذا الغرض ذاك البيت المشهور :

أقمنا بها يوما ويومين بعده ويوما له يوم الترحل خامس

ومنه :

تترك المـــــرء إذا ما ذاقها يرخى الإزارا
ويري الجمعـــــة كالسبت وكالليـــــل النهارا

ومنه :

فلم نزل فى صباح السبت نأخذها والليل أجمعه حتى بدا الأحد
ثم ابتدأنا الطلا باللهو من أمم فى نعمة غاب عنها الضيق والنكد
حتى بدت غرة الإثنين واضحة والسعد معترض ، والطالع الأسد
وفى الثلاثاء أعملنا المطى بها صهباء ما فرعتها بالمزاج يد
والأربعاء كسرنا حد سورتها والكأس يضحك فى تيجانها الزبد
ثم الخميس وصـــلناه بايلته قصفاً وتم لنا بالجمعـــة العدد

ويلحق بهذا طى الشهر والشهرين بين حانات القفص وقطربل كما حدثوا فى بعض خرياته أنه أقام بقطربل من أول يوم فى رجب إلى آخر يوم فى شعبان ثم عاد ليشرب قبل أن تثبت رؤية الهلال ، ونسبوا اليه أنه قال

لو شئت لم نبرح من القفص نأخذها صـــفراء كالجص

نسرق هذا اليوم من شهرنا فربما يُعفى عن اللص

فهذا الملل وذلك الفتور من مغرياته بالشراب وادمان المعاقرة: إلا انه ادمان حسى لا يلزم منه أن يتهوس صاحبه بالخمر ذلك التهوس الذى ينم على العقد النفسية ويلمح فريسته كأنما يركبها الشيطان فلا يدعها أو يوردها المورد الذى يبغيه

وينبغى ألا ننسى فى معرض المغريات التى سولت لابى نواس ادمان الشراب ـ باعثا قوياً نظنه أحدى هذه المغريات ظن الاحتمال والترجيح، وذاك هو سوء العيش ونقص الغذاء وافتقار الجسم الى الحركة والتنبيه. فان ابا نواس قد عاش فى ضنك وفاقة معظم ايامه على غير ما يتوهم المتوهمون، وكان يسمى نفسه العاشق المفلس فى بعض شعره، ويبالغ فيما انفقه على الخمر احيانا فيروى لنا انه انفق عليها الثمانين دينارا التى عاد بها من مصر ممتلىء الوطاب بجوائز الخصيب، وما فى كل يوم يمتلىء الوطاب هذا الإمتلاء! فاذا كانت جوائز الخصيب التى كاثر بها المكاثرون لم تخلف عليه الا هذه الدنانير الثمانين فما الظن بأيامه الأخرى التى تفرقت بين السجن والأقصاء وتبدل السادات والأولياء؟ تلك حال لا يستبعد على صاحبها أن يحوجه سوء الغذاء إلى استفزاز البنية بالكحل وما إليه، كأنه بديل من الفخر بالآباء، وبديل من السآمة والخواء.

* * *

ونرجع إلى المقابلة بين أبى نواس وأوسكار وايلد فى هذه الخلة خلة الأدمان، تطبيقا لما أسلفناه من أن الاختلاف بينهما يثبت المشابهة كما يثبتها الوفاق

فالشاعر الايرلندى لا يشكو من عقدة النسب لأنه من سلالة النبلاء ، ولا يشكو سوء الغذاء لأنه من الأغنياء ، ولا يدفع السآمة بالخمر وحدها لأنه مقتدر على السياحة والتردد على المقاصف والملاهى والتشاغل باقامة المآدب وحضورها عند من يدعونه إليها ، وليس من همه أن يتحدى الناس بالشراب ، لأن بيئة عصره لم تكن كتلك البيئة التى كان أبو نواس يتحداها حين يقول :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

ولهذا اختلف البرجسيان فى أمر الأدمان ، فكان اختلافهما أدل على الآفة المشتركة بينهما من الوفاق .

الفنّ

أحق الشعر النواسي بالدراسة النفسانيـة – بعد الخمريات – هو شعره في الغزليات والنسكيات ، ولـكن البحث النفسـاني يتقاضانا قبل ذلك أن نتكلم عن طبيعة فنه على الجملة ، فاننا إذا فهمنا طبيعته الفنية لم نجد صعوبة في فهم عاطفة الحب ونوازع العقيدة كما عبر عنها بقصائد الغزل أو القصائد الدينية .

وصفوة مايقال في طبيعة فنـــه أنه ظاهرة من ظواهر العرض الذي أشرجت عليه الطبيعة النرجسـية ، وإذا كان الـكلام عن شاعر فالعرض النرجسي والعرض الفني تعبيران مترادفان

يواجهنـا الشعر النواسي بألغاز لانفهم حيث تتـلاقى الزندقة بالنسك ويتلاحق غزل المؤنث وغزل المذكر ويمتزج الهزل والجد ، ولكننا إذا أدخلنا في حسابنـا طبيعة العرض النرجسي ومشتقاته ولوازمه لم يبق من هـذه النقائض لغز يستعصي على الفهم ، وأصبحت هـذه الألغاز في كثير من المناسبات وهي المفتاح الحاضر الذي يحل كل إشكال

فالعرض الفني هو قوام شعر أبي نواس ، لايهمـه أن يتغزل أو يرثي أو ينظم في النسك والحكمة ، وإنما يهمه أن « يعرض » من طويتـــه « دوراً مسرحيا » يلفت النظر ؛ وكل عروضه الفنية هي مسرحيات تتميز بالموضوع ولـكنها تتساوى في صبغة واحدة : هي صبغة التمثيل

ولا نقصد بهذا أن شعره خلو من الشعور ، بل نقصد به أن العرض هو الباعث الأول عليه ، وماعدا ذلك من شعور واقعى أو شعور فنى فهو تابع من توابع الباعث الأصيل

ولا يغيب عن بالنا أن الممثل المقتدر فى فنه يستوحى شعور الدور الذى يمثله من سليقته وخياله ، ولا يغيب عن بالنا إلى جانب ذلك أن «التشخيص» Identification فطرة فى النفس الرجسية يبلغ من غلبتها على الحس أن يخلع الإنسان شخصيته على كائن غيره ، وهو لا يشعر بذلك كل الشعور فى صميم وعيه . فليس من العسير على الفطرة الفنية المطبوعة على التشخيص أن تستوحى الشعور الذى يلائم عملها الفنى وتودعه قالب الكلام المطبوع فاذا هو مطبوع

نظم هذه الأبيات فى رثاء خلف الأحمر .

لما رأيت المنون آخذة ... كل شديد ، وكل ذى ضعف

بت أعزى الفؤاد عن خلف ... وبات دمعى إن لا يقف يكف

أنسى الرزايا ميت فجعت به ... أمسى رهين التراب فى جدف (١)

. . . . . .

وكان ممن مضى لنا خلفا ... فليس منه إذ بان من خلف

ولم يكن خلف الأحمر قد مات حين تظمها ، وسواء كان نظمها مستجيبا لاقتراح خلف على الشعراء أصحابه ، أو كان نظمها بغير اقتراح منه فابو نواس

---

(١) أى قبر

هو الشاعر الوحيد الذى رويت له مرثاة لخلف الأحمر فى حياته ، وبقية القصة فى بعض الروايات جديرة بالشاعر فى عبثه وسخريته ، فان خلفا على ماقيل قد استحسن أبيات الرثاء فقال له تلميذه الهازل : ياأبا محرز! مت ولك عندى خير منهـا ، فقال خلف : كأنك قد قصرت ؟ ! قال : لا . ولـكن أين باعث الحزن ؟

وندع الرثاء وهو معلق بفقيد يموت ، وننظر فى شـعر النسك الذى لايتوقف النظم فيه على غير الناظم ، فانما كان يطرق هـذا الباب أو يدعه كأنه دور من أدوار التمثيل يأخذ منها ما يأخـذ ويوزع منهـا بين زملائه مايحبونه ويكرهون أن ينافسهم عليه .

قال أبو مخلد الطائى : جاء أبو العتاهية إلى عندى فقال لى : إن أبا نواس لايخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول فى الزهد شيئا ، فانى قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق ومافيه الشعراء ، والزهد شوق ... فبعثت إلى أبى نواس فجاء إلىّ وأخذنا فى شأننا ، وأبو العتاهية لا يشرب النبيذ معنا ، فقلت لأبى نواس. ان أباإسحاق من قد عرفت فى جلالته وتقدمه ، وقد أحب أنك لاتقول فى الزهد شيئا ... فوجم أبو نواس عند ذلك وقال . يا أبا مخلد ! قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هـذا ، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه مايتوب به كل خليـــع . وقد فعلت ولا أخالف أبا اسحاق فيما رغب فيه !

فعارض الشعر إذن فى عرفه وعرف زميله أبى العتاهيـة أدوار توزع على حسب الحاجة الى العرض الفنى لاعلى حسب البواعث الصادقة من إلهام

السريرة ... وليس مما يفوت الناقد فى هذه القصة أن أبا العتاهيه كان أثيراً عند ابى نواس وأنه دون غيره من معاصريه كان لديه فى مقام التوقير والإستجابة للرجاء ؛ وتلك إحدى العلامات على عصبية الانحراف التى تقرب بين المنحرفين كأنها من وشائج اللحم والدم ؛ وقد كانت هذه العصبية على أشدها بين الشاعرين وكانت القرابة بينهما فى هوس الانحراف اشد من قرابة النسب المدخول ؛ ولو كان فى المقام متسع للبحث فى دخيلة أبى العتاهية لفصلنا هنا أخباره ودلائل أطواره ؛ ولكن قصة واحدة من قصصه تصور لنا هذه الطبيعة المضطربة بين المجون والنسك تتبدو لنا من بعض جوانبها كأنها ملامح مكبرة مؤكدة من أبى نواس ؛ فهما زميلان فى أكثر من زمالة ؛ وهذه القصة ترينا أن أبا نواس كان على حق حين قبل من أبى العتاهية أن يستأثر دونه بالزهديات

حدث مخارق المغنى قال : جاءنى أبو العتاهيـــة فقال . قد عزمت على أن أتزود منك يوما تهبه لى ، فمتى تنشط ؟ فقلت : متى شئت . فقال : أخاف أن يُقطع بى . فقلت : والله لافعلت وإن طلبنى الخليفـة . فقـال : يكون ذلك فى غد ... فلما كان من غد باكرنى رسوله فجئته فادخلنى بيتاً له نظيفاً فيه فرش نظيف . ثم دعا بمائدة عليهـا خبز سميذ وخل وبقل وملح وجدى مشوى ، فأكلنا منه ، ثم دعا بسمك مشوى فأصبنا منه حتى اكتفينا ثم دعا بحلواء فأصبنا منها وغسلنا أيدينا ، وجاءونا بفاكهة وريحان وألوان من الأنبذة فقال : اختر مايصلح له منها ؛ فاخترت وشربت ، وصب قدحا ثم قال : غننى فى قولى :

.. أحد قال لى ولم يدر مابى ..

فغنيته فشرب قدحا وهو يبكى أحرّ بكاء ؛ ثم قال : غننى فى قولى :

ليس لمن ليست له حيلة ميسورة خير من الصبر

فغنيته وهو يبكى وينشج ؛ ثم شرب قدحا آخر ثم قال : غننى فديتك فى قولى :

خليلىّ مالى لاتزال مضرتى تكون مع الأقدار حتما من الحتم

فغنيته إياه :

ومازال يقترح على كل صوت غنى به فى شعره فأغنيه ويشرب ويبكى حتى صارت العتمة . فقال : أحب أن تصبر حتى ترى ما أصنع ؛ فجلست . فأمر ابنه وغلامه فكسر كل مابين أيدينا من النبيذ وآلته والملاهى ؛ ثم أمر باخراج كل مافى بيته من النبيذ وآلته فأخرج جميعه فما زال يكسره ويصب النبيذ وهو يبكى حتى لم يبق من ذلك شىء . ثم نزع ثيابه واغتسل ثم لبس ثيابا بيضا من صوف ، ثم عانقنى وبكى ، ثم قال : السلام عليك يا حبيبى وفرحى من الناس كلهم . سلام الفرق الذى لا لقاء بعده ، وجعل يبكى ويقول هذا آخر العهد بك فى حالة تعاشر أهل الدنيا ، فظننت أنها بعض حماقاته وانصرفت ومالقيته زمانا . ثم تشوقته فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لى ، فدخلت فاذا هو قد أخذ قوصرتين - أى وعائين من قصب - وثقب أحداهما وأدخل رأسه ويديه فيها وأقامها مقام القميص ، وثقب الأخرى وأخرج رجليه منها وأقامها مقام السراويل . . فلما رأيته نسيت كل ما كان عندى من الغم عليه والوحشة لعشرته وضحكت والله ضحكا ماضحكت مثله قط . فقال من

أى شيء تضحك؟ فقلت: سخن الله عينك ؟ هذا أى شيء هو؟ من بلغك عنه إنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزهاد والصحابة أو المجانين، أنزع عنك هذا ياسخين العين فكأنما استحى منى، ثم بلغنى أنه جلس حجاما فجهدت أن أره بتلك الحال فلم أره، ثم مرض فبلغنى أنه اشتهى أن أغنيه فأتيته عائدا فخرج إلى رسوله يقول إن دخلت إلىّ جددت لى حزنا وتاقت نفسى من سماعك إلى ما قد غلبتها عليه، وأنا استودعك الله واعتذر اليك من ترك الالتقاء. ثم كان آخر عهدى به . . »

وهذه القصة التى قصها علينا مخارق تمثل لنا نسخة من نسخ العرض المضطرب بين المجون والنسك وترينا وشيجة من وشائج القرابة فى الانحراف بين نفس أبى العتاهية ونفس أبى نواس، وسنرى فيما بعد أن القرابة بينهما أوثق من ذلك ولا سيما فى باب النسك والتوبة وأن الحكمة التى تقول لنا إن الجنون فنون أعمق وأصدق مما أراد القائلون

ويديه أن أبا نواس لم تكن به حاجة إلى طبيعة العرض فى معظم الأبواب التى قال أبو العتاهية أنه ترك النظم فيها كالمديح والهجاء وما فيه الشعراء. فهذه الأبواب قد اصطلح الناس جميعا على بداعتها وفهموا أنها تدور على العطاء والمنح والمودة والجفاء فلا حاجة للشاعر إلى خلق أسبابها من عنده، ولكن بابا من الأبواب تركه أبو العتاهية وأكثر أبو النواس من النظم فيه قد كان يصدر منه عن طبيعة العرض ولا تدعوه اليه حاجة الشاعر إلى الكسب أو إلى التسلح بالمدح والهجاء. لترغيب الأصدقاء وترهيب الأعداء، وذلك الباب هو باب الطرد ووصف الصيد فكل بواعثه

عند أبي نواس فانما هي من قبيل العرض الفني بغير مشاركة من البواعث « المعيشية » المصطلح عليها بين معاصريها

ولا يعتمد النقد على تعليل قصائد الطرد بطبيعة العرض لو كان أبو نواس من هواة الصيد في غير صحبة يجاريها كما يجري كل صحبة

وإنما يكون الشعر من « العرض الفني » حين يكون مداره على الصورة والحكاية وهكذا كان شعر أبي نواس في قصائده الطردية على الاجمال فانه وإن صاحب الصيادين على مايظهر من بعض شعره ، لم يؤثر عنه أنه كان يحب الطرد والصيد ذلك الحب العلاب وانما نظم فيه ليعرض قدرته على النظم في هذا الباب فاختار أكثر طرديآته من الرجز وهو وزنه التقليدي عند الشعراء ، واصطنع فيه الغريب ليحكي أمام الرحاز رؤبة بن العجاج وهو مشهور بكثرة غريبة في أراجيزه فكل مافي هذا الباب « عرض فني » تنحصر بواعثه في هذه الرغبة ولا تعبر عن باعث نفساني غير هذا الباعث ومن اتقان العرض أنه كان يتخير القوافي الفخمه العسيرة كالطاء والظاء ومن أمثلتها قوله في وصف كلب

أنعت كلبا جال في رباطه ... جول مصاب فرمن اسعاطه (١)
عند طبيب خاف من سياطه ... هجنا به وهاج من نشاطه
كالكوكب الدري في انحراطه ... عند تهاوي الشد وانبساطه
يقمم القائد في حطاطه ... وقده البيداء في اعتباطه (٢)

(١) أي جول مجنون يعالج بالسعوط فر من الطبيب المعالج
(٢) أي يصرع القائد ويعتبط الأرض كما تعتبطها الريح أي تقشرها

لما رأى العلهب في أقواطه سابحه وقرفى التباطه (١)
كالبرق يذرى المرو بالتقاطه مثل قلىّ طار فى أنفاطه (٢)
وانصاع يتلوه على قطاطه (٣) أغضف لايبأس من خلاطه

إلى آخر الأرجوزة على هذا المثال

ومن هذا الباب على حرف الظاء :

أعددت كلبا للطراد فظا إذا غدا من نهم تلظي
وجاذب المقود واستلظا كأن شيطانا له ألظا
يلظ أسراب الظباء كظا حتى تراها فرقا تشظى
يجوز منها كل يوم حظا حتى ترى جميعها مفتظا

أى مفتضا معتصرا

وقس على ذلك سائر طردياته وهى من أجود منظوماته ، وبواعثها كلها ما علمنا من حب العرض الفنى المتمكن من خلقته من ناحية الطبيعة الترجسية والهبة الفنية ، فلولا أن رؤبة قد أغرب فى رجزه ولولا أن الطرد ينظم فى الرجز ولولا أن أبا نواس قد حفظ الغريب وأحب أن يعرضه فلم يجد لعرضه بابا غير هذا الباب ، لما ألح أبو نواس على هذا الباب ينظم فيه ويعيد النظم على السهل والصعب من قوافيه

وقد أجمع مؤرخو الأدب لعصر أبى نواس على سعة علمه بالغريب

(١) العلهب ثور الوحش والاقواط القطعان والالتباط الجرى السريع
(٢) أى يقذف الحجارة كما يطير الفتات من المقلاة
(٣) على قطاطه أى مثاله والاعضف الذى أذناه الى الوراء

وأغرق بعضهم فى توســعة نصيبه من العلم به حتى زعم أنه لم ينظم الشعر إلا بعد أن حفظ ألف أرجوزة ثم أمره أستاذه خلف الأحمر بنسيانها وأغرق هو فى مثل هذه المبالغة فقال أنه لم ينظم الشعر إلا بعد أن روى لاكثر من ستين شاعرة وناهيك عن الشعراء الفحول فاذا تركنا جانب الاغراق من هذه الأقاويل فالذى يبقى ثابتا لامبالغة فيه أنه كان وافر العلم بالغريب والاراجيز وأنه احتاج إلى العرض فى هذا الباب لانه كان فى شعره كله سهلا قليل الأغراب لايطرق الحوشى من الألفاظ الا فى الندرة النادرة.

ولا بد هنا من ملاحظتين على تقليد أبى نواس للاقدمين حين يكون هذا التقليد سبيلا للعرض ولفت النظر فأول هاتين الملاحظتين أنه كان حريصا على محاكاة الأعراب فى أسلوبه ونسى هنا الإزراء على جفاء الأعراب ولان العرض فى باب الطرد لايتأتى له مع نبذ جفاء الأعراب والملاحظة الثانية أنه أجتنب التصرف فى مطالع الاراجيز فهى تحكى مطالع الأقدمين فى هذا الباب ومنها تكراره « أنعت كلبا » و « قد اغتدى » و « يارب » و « لما » . . وكلها مما تفتتح به الاراجيز وهو يحافظ عليها حتى حين يترك الأرجوزة إلى ما يشبهها من المجزوءات كما قال :

ربما أغدو مع كلبى طالبا للصيد فى صحبى

ثم يعود فى هذا الوزن الخفيف إلى الأغراب فى الغريب فيقول :

فسمعونا للحزيز به (١) فدفعناه على أظب
فاستدرته فدر لها يلطم الرفقين بالترب

---

(١) الحزيز الأرض الغليظة

فادّراها وهى لاهية وجحيم الحاذ والغرب (١)
ففرى جماعهن كما قد مخلولان من عصب
غير يعفور (٢) أهاب به جاب دفيه عن القلب
ضم لحييه بمخطمه ضمك المكسرين بالشعب
وانتهى للباهيات كما كسرت فتخاء عن (٣) لهب
فتعابى التيس حين كبا ودنا فوه من العجب (٤)
ظل بالوعساء (٥) ينفضه أزما منه على الصلب
تلك لذاتى وكنت فتى لم أقل من لذة حبى

وقد غير هذا البحر ولم يستطع أن ينزع عن لوازم العرض فى باب الطرد ، هى الاغراب فى اللفظ . فملأ هذا البحر المستخف بالجلاميد الجافية من مفردات اللغة الوعرة لان الغرض الأكبر هو اظهار القدرة على الأغراب ومحاكاة الأعراب

فالشاعر على هذا ماض مع طبيعة العرض تملى عليه هذه الطبيعة أن ينعى على الاطلال فينعاها وتملى عليه أن يحذو حذو الاقدمين فيبالغ فى محاكاتهم وينتزع من درايته باللغة شملة بدوية لاملاءمة بينها وبين أسلوبه حيث يلبس للحضر لبوسه ويناجى أبناءه وبناته بما يأنسون من لغة الأندية ومجالس اللذات

× وقد سئل الشاعر عن جيده ورديئه فقال : اذا اردت أن أجدّ قلت

---

(١) الحاذ ما يحاذيك من الجنبين والغرب الظهر
(٢) العفور الذى يلون العفار والدف الجنب
(٣) الفتخاء العقاب واللهب ما بين الجبلين من هاوية
(٤) المعجب آخر العمود الفقرى (٥) الوعساء رابية من رمل

مثل قصيدى « ايها المنتاب من عفره » واذا اردت العبث قلت مثل قصيدى « طاب الهوى لعميده » . . فأما الذى أغنى فيه وحدى وكله جد فاذا وصفت الخمر »

وهذه رواية تشككنا فى صحتها أو تشككنا فى صواب ابى نواس حين يحكم على شعره . فإن قصيدته طاب الهوى لعميده ليست من شعره الردىء على كثرة الردىء منه ، ولكن الصواب — لو كان ابو نواس ينقد الى دخيلة طبعه — ان يقول : انه يجيد حين يجمع قريحته للعرض الفنى ، ويسف ويهبط حين ينسى العرض ويترك قريحته فى مباذلها !

على ان النرجسية قد استوفت نصيبها من كل مسماها . فليس التهافت على العرض كل ما يجنيه الفنان من الطبيعة النرجسية ، وليس بالنادر ان يستفيد منها نفحة من لطافة الحدس وشفافية الحس تلهمه الخواطر التى تدق على الطبيعة الخشنة . وهذه المزية لم يحرمها ابو نواس ، فأفاد منها زكانة فى كثير من طرائفه كأنها زكانة تلك اللغة الموحية التى كان يتفاهم بها مع اودائه . يعنيها بقوله :

أزور محمدا فاذا التقينا ... تكلمت الضمائر فى الصدور
فأرجع لم اله ولم يلمنى ... وقد رضى الضمير عن الضمير
أمور ليس يعرفها سوانا ... يحيرّ لطفها بصر البصير

او يعنيها بقوله :

تجمع عينى وعينها لغة ... تخالف لفظها لمعناها
اذا اقتضاها طرفى لها عِدةً ... عرفت مردودها بفحواها

فإن لم تكن طرائفه كلها من وحى هذه اللغة فمن وحيها ولا شك قسط غير يسير .

الحُبّ والغزل

قال أبو نواس فى جنان :

ما هوى إلا له سبب ... يبتدى منه وينشعب
فتنت قلبى محجبة ... وجهها بالحسن منتقب
خلّيت والحسن تأخذه ... تنتقى منه وتنتخب
فاكتست منه طرائفه ... واستزادت بعض ماتهب
هى لو صيرت فيه لها ... عودة لم يثنها أرب(١)
صار جداً مالعبت به ... رب جد جره اللعب

وقال فى عريب:

صيرنى عبداً لها مذعناً ... حبي لها ، والحب شيء عجب
لو وعدتني موعداً صادقاً ... أو كاذبا ، بالجد أو باللعب
ظننت أنى نلت ما لم ينل ... ذو صبوة من عجم أو عرب

وقال:

جفن عينىّ كاد يسـ ... ـقط من طول مااختلج
وفؤادى لحر حبـ ... ـك والهم قد نضج
خبرينى فداك نفسـ ... ـى وأهلى متى الفرج
كان ميعادنا خرو ... ج زياد ، وقد خرج

(١) أى أنها اختارت فلم تبق ما تختار إذا عادت إلى المحاسن لتأخذ منها غير ماعندها

أنت من قتل عائذ بك في أضيق الحرج

وقال فى دنانير :

صليت من حبها نارين واحدة بين الضلوع وأخرى بين أحشائى
وقد حميت لسانى أن أبين به فما يعبر عنى غير إيمائى
ياويح أهلى أبلى بين أعينهم على الفراش ومايدرون مادائى
لو كان زهدك فى الدنيا كزهدك فى وصلى مشيت بلاشك على الماء

وقال فى حُسن :

طفلة خود رداح هام قلبى بهواها
قدها أحسن قد فاسألوا من قد رآها
ما يراها الله إلا فتنة حين يراها
تنثر الدر إذا غد ت علينا شفتاها
وترى العود زهواً حين تحويه يداها
ربما أغضيت عنها بصرى خوف سناها
هى همى ومنائى ليتنى كنت مناها

وقال فى عنان :

لولا حذارى من جنان لخلعت عن رأسى عنانى
وركبت ما أهوى ولم أحفل مقالة من نهانى
وخرجت أخبط سادرا لم أغن عن حب الغوانى
قد ذبت غير حشاشة فى النفس تحبسها الأمانى

يامن يلوم على الصبا دعني فشأنك غير شأني
لم تلق من حر الهوى ماقد لقيت على عناني
انى ترد عليّ قلبـ ـا راج فى غلق الرهان
قلبا إذا كلفته غير الذى يهوى عصاني
قد خضت فى لجج الهوى وشربت صافية الدنان
ومضمخات بالعبـ ـير نزان من غرف الجنان
راضعتهن من الصبا كأساً عقدن بها لساني
أقبلن من باب الرصا فة كالتماثيل الحسان
يحففن أحور كالغزا ل أمرّ إمرار العنان
يمشي بردف كالنقا يختال تحت قضيب بان
ولقد أقول لمن دعا ه من الهوى ما قد دعاني
أبلغ هواك من القنا والكأس وأغن عن الزمان
لا يشغلنك غير ما تهوى فكل العيش فان
ودع الهوان لأهله ان زلت عن دار الهوان

وقال فى جنان :

دع جنانا وحبها عنك إن كنت عاقلا
لاتذكر بنفسك المو ت إن كنت غافلا
انت ان لم تمت بها الـ عام لم تنج قابلا
رجعت نفسك التى ذهبت عنك باطلا

وقال فيها :

ولقد سباك منعم ... ميسان مبتهج ربيب
خود يجول وشاحها ... فى طى مئزرها كثيب
واذا تقوم لشأنها ... يمشى بأعلاها قضيب
فالويل لى ما حل بى؟ ... قد شفنى حزن مذيب
بين الجوانح والمفا ... صل كالشرار له لهيب

وقال فى منية :

أبت عيناى بعدك أن تناما ... وكيف ينام من ضمن السقاما
بكيت من الفراق لما ألاقى ... وراجعت الصبابة والغراما
رجعت إلى العراق برغم أنفى ... وفارقت الجزيرة والشآما
على شط الشآم وساكنيه ... سلام مسلّم لقى الحماما
مذكرة مؤنثة مهاة ... إذا برزت تشبهها الغلاما
تعاف الماء والعسل المصفى ... وتشرب من فتونها المداما

وقال موريا أو مصرحا :

لما تكشف عنى أننى كلف ... كشفت عمدا لهم عمن به الكلف
جيم وجدت لها نونين بينهما ... لمن تهجى اسمها أو خطه ألف
يضمه من ثقيف بعض دورهم ... ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

وقال من غزل المذكر :

غزال به فتر وفيه تأنث ... وأحسن مخلوق وأجمل من مشى
أقول له يوما وقد مضنى الهوى ... أطلت عذابى فيك ياخير من نشا

فقال : الما يأن أن نترك الصبا ... ومالك ياهذا ؟ ومالى ؟ وماتشا ؟
فقلت له : أقصر عن اللوم سيدى ... فمن ذا يطيق الصبر عن مشبه الرشا
أرى لك وجهافتت القلب حسنه ... به و ينجلى كربى وقد ينجلى الغشا
اتقتلنى ان قلت أنى أحبه ... ولاذنب لى إن كان في الناس قدفشا
كتمت الهوى حتى أضر بمهجتى ... وكان الهوى طفلا صغيراً فقد نشا
فرق لى المولى ففزت بموعد ... وقال انتظرنى قبل مقتبل العشا

وقال منه :

ومعشوق الشمائل والدلال ... كقرن الشمس فى قد الغزال
تأزر بالملاحة وارتداها ... وسربل بالكمال وبالجمال
صبا شمس تفرع فى قضيب ... ودعص نقا ترجرج فى اعتدال
له فى خده خال مليح ... بنفسى ذاك من خد وخال

وقال :

مستيقظ اللحظ فى أفنان وسنان ... قبلت فاه فخيانى ريحانى
مستعبد للأمانى حسن منظره ... عف الضمير ولكن لحظه زان
يا من تأنق باريه وصوره ... دعصا من الرمل فى غصن من البان

وقال : وظبى تقسم الآجا ... ل بين الناس عيناه
وتورى البث والأشجا ... ن في القلب ثناياه
وتحكي البدر وقت التم ... للأعين خداه
تعالى الله ما أحسـ ... ـن ما صوره الله
ولو مثـل نفس الحسـ ... ـن شخصا ما تعداه
له آخرة قـد أشـ ... ـبهت فى الحسن دنياه

فلو أنا جحــــدنا الا ه يـوما لعبــدناه
بنفسى من إذا ما النأ ى عن عيـنى واراه
كفانى أن جنح اللي ل يغشـانى وأغشـاه

وقال :

متتايه بجماله صــــلف لا يستطـاع كلامـه تيهـا
للحسن فى وجناته بدع ما أن يمل الدهر قاريها
لو كانت الأشباح تعرفه أجللنه إجـلال باريها
لو تستطيع الأرض لا قبضت حتى يكون جميعه فيها

وقال :

أيها الناس إرحمـونى وتمشـوا لى اليـــه
كلمـــوه فى سكون لا تشقن عليـــه
كلمـــوه اليوم يرضى عن أسـير فى يديه
لو رأيتم حـين يمشى كاسرا من حاجبيـــه
في إزار قـــد لواه ثم دلى طرفيـــه
قلتم ذا الفتك حقا ليس ما نحن عليـــه

وقال موريا أو مصرحا :

لـكن إذا عيـــل صبرى ذكرته فى هجـاتى
عـين ولام وميم مليحـــة النغمات

وقال كذلك :

لم أزل أخلع فى الحب الرسن وفؤادى عنـد ظبى مرتهن
وجفونى ساكبات دمعها والحشا فى حشوه منى الحزن

منذ أبصرت هلالا طالعا　　يتثنى بقوام كالغصن
ميمه شف فؤادى فى الهوى　　وبحاء، فيه قلبى قد فتن
وبميم يعدها أقلقنى　　وبدال سل روحي من بدن

* * *

هذه أمثلة متفرقة من غزل ابى نواس فى المؤنث والمذكر، جمعناها بين جدها وهزلها، ومبالغتها واعتدالها، وجيدها ورديئها، وعرضناها معا ليقابل بينها من يشاء كما قابلنا بينها، فهى على ما نرى سواء فى لبابها وقشورها لا يجزم الناقد برجحان غزل المؤنث منها على غزل المذكر ولا برجحان غزل المذكر منها على غزل المؤنث، واذا اتفق تفضيل قطعة من هذا الغزل على قطعة من ذلك الغزل فكما يتفق تفضيل القطعة على الأخرى فى الغزل الواحد، او كما يتفق التفاضل بين كلام الشاعر فى بعض اغراضه او فى جميع اغراضه، فلا يكون الشاعر مجيدا فى كل ما يقول ولو قصر النظم على بابه الذى فرغ له ولم يستحسن له قول فى غيره

وتتشابه الصفات والملامح التى يهواها الشاعر فى معشوقاته ومعشوقيه، ويهوى المعشوقة احيانا لانها « مذكرة مؤنثة » ويهوى المعشوق احيانا لانه « متفتر وفيه تأنيث . . » فكما يكون من محببات الانثى اليه انها تشبه الغلام فى بعض أوصافه كذلك يكون من محببات الغلام اليه انه يشبه الانثى فى بعض الأوصاف

انما جزم بعض النقاد برجحان غزله فى المذكر على غزله فى المؤنث لانهم ساقوا انفسهم اضطرارا الى هذا الترجيح، وفرضوا فرضهم الأول بغير فهم لحقيقته ثم الزموا انفسهم نتائجه عن اعتساف لا دليل عليه

فرضوا ان الشذوذ الجنسى شىء واحد يستلزم ان يكون الشاذ منحرفا

الى هوى ابناء جنسه ، ثم وجدوا ابا نواس يتغزل بالجوارى كما يتغزل بالغلمان ووجب ان يعللوا هذه الغرابة فعللوها بالصدق فى احد الغزلين والكذب فى الغزل الآخر ، ولكنهم اذا رجعوا الى الحقيقة لم يجدوا علامة من علامات الصدق عندهم ينفرد بها غزل المذكر او غزل المؤنث ، سواء نظروا الى التعبير عن الشعور او نظروا الى الاجادة الفنية ، وهذا على فرض ان الاجادة الفنية شرط من شروط الشعور الطبيعى فى اهل الفنون وفى سائر الناس

وتصحيح هذا الخطأ انما يكون بالرجوع الى العلل النفسانية كما شرحتها الدراسات الأخيرة ، فأصل الخطأ سوء فهم الشذوذ الجنسى الذى انطوت عليه طبيعة ابى نواس ، فلم يكن شذوذه يستلزم الشغف بابناء جنسه دون غيرهم ، ولم يكن جنسه هو سويا غير مشترك حتى يظن به انه يميل الى جنس واحد . وانما كانت له طبيعة جنسية تشتبه بكلا الجنسين وتتشكل بهذا الشكل مرة وبذلك الشكل مرة اخرى ، على حسب غوايات الطبيعة النزجسية ، ومن ثم حبه الفتى لأنه كالفتاه وحبه الفتاة لانها كالفتى ، ونظرته الى الرجولة بعين المرأة فى بعض هذه الأحايين

واذا اعتبرنا رجحان الغزل بما ينم عليه من حرارة الشعور فربما توافقت الآراء على ان غزله فى جنان انمّ على حرارة الشعور من سائر غزله ، فان لم تتوافق الآراء على ذلك فلا نعرف قصيدة فى غزل المذكر يحسبها النقاد راجحة بحرارة الشعور على سائر القصائد الغزلية

والمدار فى غزل ابى نواس جميعه على الصورة التى يشخص بها نفسه فى ذات معشوقه او معشوقته على دأب النزجسيين ، وقد مر بنا انه كان يعجبه ممن يتغزل به ان يلثغ بالراء وان يتشبه بالادباء ، وان يقتدى به يوم

كان معشوقا فى صباه ، ولم تفارقه هذه الخليقة النرجسية حتى بعد ان كبر واكتهل ، فكان يقول فى معشوق ملتح :

قال الوشاة بدت فى الخد لحيته ... فقلت لا تكثروا ، ما ذاك عائبه
الحسن منه على ما كنت اعهده ... والشعر حرز له ممن يطالبه
أبهى واكثر ما كانت محاسنه ... أن زال عارضه واخضر شاربه
وصار من كان يلحى فى مودته ... ان سال عنى وعنه قال صاحبه

× وبديهى ان النظر فى غزل ابى نواس لا محل فيه للكلام على وفاء المشاق بالمعنى الذى عرفه قراء الادب العربى من اخبار العذريين ، بل لا محل فيه حتى للتجمل الذى كان يناسب سمت الشعراء الغزلين من امثال ابن ابى ربيعة ، فقد كانت بيئة ابى نواس بعيدة عن بساطة البداوة بعيدة عن تجمل ذوى البيوتات من الفتيان والعقائل ، وكانت بيئته على الاكثرين الجوارى والقيان وبين المتعرضين لشعراء المجون من الغلمان . وقد زاد عدد معشوقاته المذكورات فى ديوانه على عشر ، منهن جنان ودر ودنانير ونبات وحسن ومنى ومنية وسمجة وعنان ومكنون وعريب وقائل ، عدا اللاتى تغزل بهن ولم يذكر اسماءهن ، وكان يبث لوعته لعنان فى ابان مناجاته لجنان ، فيقول :

لولا حذارى من جنان ... لخلعت عن رأسى عنانى

. . . . . .

يامن يلوم على الصبا ... دعنى فشأنك غير شأنى
لم تلق من حرق الهوى ... ما قد لقيت على عنان

وتغزل بمثل هذا العدد او اكثر من المعشوقين ، فلم يحرص على ظاهر الوفاء فضلا عن مضمره ومكنونه ، ولم يكن عرف البيئة يتطلب منه هذا

المظهر فى غزله بالمؤنث او غزله بالمذكر ، فما كان الغزل فى عرفهم الا تسلية وترجية فراغ وشغلانا بثرثرة المجالس ووشايات المجتمع ومناوشات الاندية التى يجتمع فيها الشاربون وطلاب السماع والمسمعات او المسمعون من القيان والمغنين . . .

ذلك كان ديدن العصر بجملته ... أما الزيادة من أبى نواس على عرف عصره فهى زيادة الطبيعة الموكلة بالعرض والتشخيص ، وهى زيادة الطبيعة النرجسية التى تجعل العاطفة نحو غيره كالمقولة أو العارية المستردة ، لأن النرجسى كما تقدم يتمثل نفسه فى غيره ولا يحب ذلك الغير إلا بمقدار الدور الذى يحكيه أو الزى الذى لا يلبث أن يخلعه ، وبخاصة حين يكون النرجسى كأبى نواس « مشترك الجنس » قادراً على تمثل شخصه فى الأنات والذكور ، وعلى تمثل نفسه محبوبا للرجال والنساء .

ويبدو لنا أن شعره الذى يعلن فيه زهده فى المرأة انما كان من أعراض المرأة عنه لا من أعراضه هو عن المرأة ، وأنه كان يشتهى المرأة فلا يستهويها فيدارى خيبته معها ويوهم الناس أنه يتركها باختياره ولا يتركها على الكره منه

وكان يعجب الناس أن يتحدثوا بمجانبه وشذوذ طبعه فيجمع المتكلمون عنه على رفضه الزواج ، ولم يصدقوا كل الصدق على مايظهر من قوله يخاطب إبنة له :

يا ابنتى أبشرى بميرة مصر وتمنى وأسرفى فى الأمانى

وقوله عمن تركها فى بيته :

تقول التى عن بيتها خف مركبى عزيز علينا أن نراك تسير

ولابد من الرجوع بشىء من مبالغات أبى نواس فى الولع بالغلمان إلى

البدعة التى نشأت فى زمانه ولم تكن لها سابقة فى الأدب العربى قبله ، فلم يسمع عن شاعر من الجاهليين والمخضرمين أنه نظم الشعر غزلا بالمذكر ، ولم يكن غزل ابن مناذر قبيل أبى نواس بقليل على هذا التهتك والمجون الذى فشا حوالى منتصف القرن الثانى وقبل نهايته ، فى هذه الفترة كان غزل المذكر بدعة يلهج بها من لم يكن من أهل الفسوق والمجانة ، ومن أخبار ابن منظور التى رواها عن أبى نواس أنه عشق فتى كان يسمى جمالا الدارى وكان لا يشرب الخمر ولا يغشى معارض الشبهات ، وقد تغزل بخمسين غلاما ولما يجاوز العشرين .... وفى هذا الفتى يقول أبو نواس :

يا واصف الخمسين لو تعدل لكان فيهم اسمك الأول
وصفت خمسين فميزتهم وأنت أنت الظبية المغزل
جمال دع عنك لنا وصفهم أنت وربي منهم أجمل

وما كان من خيم أبى نواس - وهو المطبوع على العلانية والتحدى - أن يشهد البدعة ولا يتمادى فيها حتى يسبق مبتدعيها ، فالأفراط فى غزل المذكر لا يحسب كله على أبى نواس ولا يتخذ كله دليلا على نوازعه وأهوائه . ويصدق عليه فى هذه الحلة ما يصدق على الشيطان فى أمثال الغربيين ، فليس هو من السواد الحالك بحيث يرسمه الرسامون !

ثم تنحسر الشهرة عن زياداتها وتثوب الطبيعة إلى حدودها ، فتبدى لنا الحسن بن هانىء فى تلك الحدود على حقيقة شذوذه الجنسى الذى يفسر غزله بالمؤنث وغزله بالمذكر ، ويفسر تأنثه فى صباه ويفسر مبالغته ودعواه ، وذلك هو شذوذ الطبيعة النرجسية التى مكنتها فيه بيئته من أهله وعصره ومعاشريه

العقيدة

ينقسم الناس إلى مؤمنين وجاحدين ، أو كافرين

وهذا تقسيم شائع فى اصطلاح الباحث الدينية . ولكن الباحثين النفسانيين يهمهم الاستعداد النفسانى وارتباطه بتركيب البنية وبواطن السريرة . فهم يقسمون الناس على حسب هذا الاستعداد إلى قسمين آخرين وهما الدينيون واللادينيون

وهنالك فارق أصيل بين الجاحدين واللادينيين :

فالجاحد قد ينكر دينا لم تطمئن سريرته إلى عقائده وشعائره ويظل منفتح القلب للايمان بدين آخر ، وقد ينكر الأديان التى يعرفها جميعاً ويجاهد فى إنكارها بحماسة تشبه حماسة المؤمن المستبسل فى جهاده ، ولعله ينكر الأديان التى يعرفها تشوفاً إلى دين يسمو عليها ويرتفع لديه إلى المثل الأعلى الذى يحلم به ويتمناه

فإن لم يكن منكرا للدين على نحو من هذه الأنحاء فهو مهتم بالدين على أية حال ، وليس مكان الدين من باطنه خواء لايتسع لإيمان ولا إنكار ولا مناقشة ولا انتظار

أما اللادينيون فهم مخالفون للجاحدين فى هذه الخلة ، إذ هم لا يهتمون بالدين ولا ينشطون لقبوله ولا لإنكاره ، ولا يشغلون عقولهم به لمحة عين ،

كأنهم ولدوا قبل وجود الأديان فلم يسمعوا بها ولم يشعروا قط بخاطر من خواطرها ، فهم غرباء منقطعون عن هذا الشاغل الفوى من شواغل الوجدان

ان الجاحد قد يكون عدواً أو مهادناً أو على الحيدة بين معسكرين أما اللادينى فليس هو بعدو ولا مهادن ولا محايد ، ومجمل القول فيه أنه غريب عن الميدان .

وذلك كما تقدم فارق أصيل بين الجاحدين واللادينيين ، فمن أى الفريقين كان الشاعر أبو نواس ؟

X لم يكن عن يقين من اللادينيين ، لأنه لم ينقطع قط عن اللهج بالأديان وإن كان ليلهج بها لهجا لا يطيب للمتدينين الصالحين

وليقل من شاء ماشاء فى زندقته ومجونه وعصيانه ولغو لسانه ، فانه بعد كل مايقال من هذا القبيل بعيد جدا أن يحسب من اللادينيين الذين صغر مكان الدين من نفوسهم فلم يشغلهم منه شاغل ولم يكن فيه ولا فى أهله مايهمهم على وجه من الوجوه

وإذا صرفنا النظر عن نوع أشتغاله بشأن الدين فليس بين شعراء العربية من عناه هذا الشأن كما عناه... إذ هو لم يذكر قط مجلسا من مجالس لهوه ولا معرضا من معارض غزله إلا أشار معه إلى جوه الدينى أو علاقته الدينية ، بغير داعية من دواعى الموضوع أو المقام

ولو ذهبنا نستقصى هذه الإشارات لأوشكنا أن ننقل ديوان غزله ومجونه ، ولكننا نجتزىء بما يكفى الدلالة على هذه النزعة العجيبة فى قريحته ووجدانه X

ومنها فى موعد آخر :

وظباء يتلون سفرا من الانجيـ ـل باكرن سحرة قربانا

ومنها : صفراء مجدها مرازبها جلت عن النظراء والمثل

ومنها : خذها على دين المسيح إذا نهى عن شربها دين النبى محمد

ومنها : آذنك الناقوس بالفجر وغرد الراهب فى العمر

ومنها : حراما كان أوله حلالا نخل الحل يذهب بالحرام

ومنها فى الغزل :

يا سمى الكليم من كان الله ه وأدنى مكانه تقريبا

وشبيه الذى تلبث فى السجـ ـن سنينا وكان برآ نجيبا

وابن قارى القرآن غضا كما أنزل قد سمت قلبى التعذيبا

ومنها فى الغزل أيضا :

ألا يا قمر الدار ويامسكة عطار

ويا نفحة نسرين ويا وردة أشجار

ويا عرش سليما ن إذا هم بأسفار

ويا مزمور داود إذا يتلى بأسحار

ويا كعبة بيت الله ه ذا ركن وأستار

لقد أصبحت من حبـ ـك بين الخلد والنار

ولا نهاية لهذا المعنى إلا باستنفاد خمرياته وغزلياته ، فهو لا ينى فى قصائده هذه « يتحرش » بالدين والعبادة ، وينم بتحرشه هذا على العاطفة التى ينم عليها التحرش عادة ، وهى عاطفة ليست من العداء وليست من الازدراء ،

(١) أى الكنائس

ولكنها شغلان بشوبه العبث واهتمام لا يقوى على الجد ولا على الترك والنسيان ، وفهمه ميسور إذا قسناه على كل تحرش من قبيله فى العواطف الإنسانية . فالتحرش قبل كل شيء اهتمام

وهذا الاهتمام بذكر الحرمات فى شعر أبى نواس إنما هو مغالاة بقيمة لذته وتقريبه بين الشعور بها والشعور بالقداسة ، فليس هو فى وعيه الخفى حطاً من قيمة الحرمات بل رفع لقيمة اللذات واعتزاز بمقاربتها لمكان الصون من العبادة والتقوى

دخل أبو نواس السجن لاتهامه بالزندقة ، وطال حبسه حتى زار السجن خال الوزير الفضل بن الربيع يتفقد السجناء ويتحرى أسباب سجنهم ، فسأل أبا نواس : أزنديق أنت ؟ قال : معاذ الله .. قال : لملك ممن يعبد الكبش ؟ قال : أنا آكل الكبش بصوفه قال : فلملك ممن يعبد الشمس ؟ قال : إنى أترك القعود فيها بغضا لها فكيف أعبدها ؟ .. قال : فتذبح الديك ؟ قال : ذبحت الف ديك . لأن ديكا مرة نقرنى فحلفت لا آخذ ديكا الا ذبحته ... فسأله : أملك ذنب غير هذا ؟ قال لا والله !.. اتهمونى أننى أشرب شراب أهل الجنة وأنام خلف الناس . . . قال : ـ وكانت فيه غفلة ـ فأنا أيضا افعل مثل هذا فلماذا حبست ؟ ثم خرج الى الفضل فقال : ما تحسنون جوار النعم . تحبسون من لا ذنب له !

ولم يكذب الخبيث فى جواب واحد ، فما كانت له نحلة من هذه النحل ولم يعتقد شيئا من عقائد الزنادقة فى عصره عن جد ودراية ، ولكن الذين حبسوه على هذا لم يظلموه ولم يعتسفوه لغير حريرة فانه لم يدع تهمة تلحقه بالزنادقة الا تعرض لها وأورد نفسه كل مواردها ، وأعلن من كلامه

وفعاله ما يثبتها ويستغنى عن الشهود والبينة عليها .

على أن المحتسبين الموكلين بالزنادقة والمفسدين لا يعوزهم الشهود ممن كانوا يحبون الوقيعة بالشاعر لسيئاته وحسناته على السواء ، فلم يكن أكثر من حساده بين أنداده كما قال محمد بن عمر « لم يكن شاعر فى عصر أبى نواس إلا وهو يحسده لميل الناس اليه وشهوتهم لمعاشرته وبعد صيته وظرف لسانه » . وأشد من حساده سعيا إلى الوقيعة به من كان يهجوهم أو يترفع عليهم أو يسخر منهم ، وهم غير قليلين

وأكثر منهم عدداً من كانوا يشهدونه ويسمعونه وهو يجهر بالعصيان والدعوة اليه ، ويقول فى بعض غزله

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى بعض جبار السماوات

أو يقول فى بعض مجونه يخاطب الفيلسوف ابراهيم النظام

قولا لابراهيم قولا هترا غلبتنى زندقة وكفرا

أو يقول :

دعى الملام فقد أطعت غوايتى وصرفت معرفتى إلى الإنكار
ورأيت اتيانى اللذاذة والهوى وتعجلى من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل علمى به خبر من الأخبار
ماجاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مد مات أو فى نار

ومن لم يسمع شعره فربما سمع نوادره وشهد مساخره ، وقد دخل المسجد مرة وهو على أقبح السكر وسمع الإمام يقرأ : يأيها الكافرون ! فصاح به من ورائه لبيك .. وشرب فى يوم مطير « فوضع قدحه تحت السماء فوقع فيه المطر وقال لمن حوله : أنتم تزعمون أنه ينزل مع كل قطرة ملك ،

حكم ترانى أشرب الساعة من الملائكة . ثم شرب ما فى القدح .. »

ولعله كان يتحدث هنا وهناك بمذهب الثنوية ويروى كلامهم فى الظلمة والنور ، ويعرف بما يعرف وما لا يعرف من هذه الأمور

وقد مضى أبو نواس ومتهموه والشهود عليه ومضى عصره كله وبقى من أخباره انه كان يتزندق لأنه كان يتفلسف ، وأنه اطلع على علم النحوم ، وعلوم الأوائل من الهند والروم ، فزاغ عن اليقين ، ومرق من الدين ، إذ كانت كلها علوما منقولة عن الكفرة والملحدين

أما أن أبا نواس سمع شيئا من تلك العلوم وألم بطرف من آراء القوم فذلك مفهوم من أقوال له نذكر منها :

تحيرت والنحوم وقف لم يتمكن بها المدار

وهو من قول أهل الهند أن مدارات الأفلاك يحيط بها مدار واحد ، وأن الافلاك الصغار تدور وتعود إلى المدار ، ولكن المدار الأكبر إذا انتهى من دائرته توقف كما كان قبل الحركة ، فتكون القيامة ويعود الكون سيرته الاولى دواليك

وربما كان من ذلك قوله :

حتى بدت حركات مخلوقة من سكون

وربما سمع كلاما فى الطبائع على مذهب الأقدمين كما يؤخذ من قوله :

سخنت من شدة البرودة حـ تى صرت عندى كأنك النار

لايعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

أو سمع أسماء الكواكب باليونانية وطوالعها التى نقلها اليونان عن العراق قديما فتحدث بها كأنها من المستحدثات :

صورة المشترى لدى بيت نور الليـ ل والشمس أنت عند انتصاب

ليس «زاويش» حين سار أمام الحـ ـوت والبدر إذ هوى لانصباب

منك أسخى بمـا تشح به الأنفـ س عنه انقاص در الحلاب

لا و «بهرام» تستقل به العقـ رب بالليل زائدا فى الحساب

منك أمضى لدى الحروب ولا أهو ل فى العين عند ضرب الرقاب

والمشترى وزاويش «زيوس» شيء واحد، وبهرام او المريخ سيار يقال عنه فى الأساطير أنه إله الحرب، والعقرب برج من البروج المتوهمة فى الفلك؛ والمنجمون المخرفون يزعمون المزاعم عن مقارنات السيارات والبروج ودلالتها على الوفر والرخاء أو على الحرب والقحط ... ومن سمع الحذلقة بهذه الأراجيف فى نظم الشاعر خيل اليه أنها هى المعميات التى قادته إلى زندقته ومروقه، ولا شأن لهذا بذاك إلا أن يكون شأن السعود والنحوس التى هذر بها المنجمون — فى وادى النهرين على الخصوص — من قبل التاريخ

ولعله سمع كلاما فى الصفة والموصوف من قبيل قوله فى حسن:

ان اسم حسن لوجهها صفة ولا أرى ذا فى غيرها اجتمعا

فهى إذا سميت فقد وصفت فيجمع الإسم معنيين معا

إلى نظائر من هذه الأقاويل يستطيع المتلقف أن يجمعها فى بضعة أيام وهو يجلس إلى المتفيهقين بها ممن تعمقوا فيها أو تخطفوها لماما ثم لا يقال عنه أنه عرف ما ينقض الدين أو يبيح المحظورات، ويغرى المرء بركوب رأسه فى الموبقات

ولقد كان ابراهيم النظام من أعلم أهل زمانه بهذا الذى يسمونه علوم الأوائل وكان أبو نواس يحضر عليه فينهاه عن التبذل ويذكره الوعيد

ويقول له أن من ترقب وعد الله فعليه أن يحذر وعيده ، فلا يرعوى عن لهوه ومجونه حتى يئس منه فطرده من مجلسه فنظم فيه قصيدته التى اشتهرت بالابراهيمية ومطلعها :

دع عنك لومى فان اللوم إغراء ... وداونى بالتى كانت هى الداء

وفيها يسخر منه :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة ... حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

لاتحظر العفو إن كنت امرءا حرجا ... فان حظركه بالدين إزراء

فالذين اتهموا أبا نواس لم يظلموه ولم تعوزهم البينات على دعوته للفساد ولعلهم قد ظلموا الفلسفة وعلوم الأوائل فظنوها مدرجة المطامين عليها إلى الزندقة ومفاهيها ، ولازندقة هنا ولا مذاهب ولاشيء غيرالمجون وحب الظهور ، وعند أبى نواس منه — كما أسلفنا — أسباب لم تكن عند أحد من معاصريه ! ولكنه لم يكن يعيبه من نفسه كما كان يعيبه من غيره على حد قوله فى أبان اللاحقى إذ كان يتظرف بادعاء الزندقة

جالست يوما أبانا ... لادرّ درُّ أبان

ونحن حضر رواق الأ ... مير بالنهروان

حتى إذا ما صلاة الأ ... ولى دنت لأوان

فقام منذر ربى ... بالبر والإحسان

وكلما قال قلنا ... إلى انقضاء الأذان

فقال : كيف شهدتم ... بذا بغير عيان ؟

لا أشهد الدهر حتى ... تعاين العينان

فقلت : سبحان ربى ... فقال : سبحان مانى

فقلت : عيسى رسول فقال من شيطان

قلت : موسى نجيّ الـ هيمن المنان

فقال : ربك ذو مقـ ـول إذن ولسان

أنفسه خلقته أم من ؟ فقمت مكانى

وقلت : ربى ذو رحمـ ـة وذو غفران

وقمت أسحب ذلى عن منكر القرآن

عن كافر يتمرّى بالكفر بالرحمن

يريد أن يتساوى بالعصبة المجّان

والمجان فى عرف تلك البيئة هم الظرفاء ، والمجون هو الظرف على اعتقادها وفى طليعتها أبو نواس : نصح له الأمير أبو العباس محمد أن يتوب عن المجون فقال له . أما المجون فما كل أحد يقدر أن يمجن ، وإنما المجون ظرف . . ولست أبعد فيه عن حد الأدب أو أتجاوز مقداره ، أما المعاصى فإنى أثق فيها بعفو الله عز وجل وقوله تعالى ، فوالله لو أن السندى يقول ماله الله عز وجل لوثقت به ، فكيف يقول رب العالمين وهو يقول : ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً »

والعصبة المجان الذين أراد أبان اللاحقى أن يتشبه بهم هم طائفة من زملاء أبى نواس كحماد عجرد ووالبه بن الحباب ومطيع بن اياس وقاسم بن زنقط وعيسى بن غصين وعبيد العاشقين الذى لقب بذلك لجمعه عاشقا ومملوكه وعاشقا وجاريته . وغيرهم ممن يكبرونه فى السن أو يقاربونه ولكنه كان أشهرهم عنجهاهم فى المجون ، لأن دواعيه اليه أكثر وشعره فيه أسير ، فهو

(١) امام المانديه القائلين بالأهين اله النور واله الظلمة.

يحل من هذه الطائفة محل « الشخصية النموذجية » التي نقدم الكلام عليها، معظمهم مثله من الموالي الذين فتحت لهم ثقافة العصر أبواب المعرفة، وكلهم من الذين ابتلوا بحركات النفس على اختلافها، وليس فيهم من تسلطت عليه جميعا كما تسلطت عليه

فلا زندقة عند صاحبنا ولا فلسفة، وكل ما عنده ولع بالظهور وضعف عن مقاومة الغواية والفجور.

وبغير «دراسات نفسية» أو تحليلات عويصة في البواطن الخفية، أيمكن ان يكون انسان كأبي نواس منكر الدين كله يواجه ظلام المجهول بذلك الانكار؟

ليست المضلة في هذا السؤال معضلة الصلاح والبصيرة الروحانية، وليس فقدان الصلاح والبصيرة الروحانية هو كل ما لزم للانكار والاصرار عليه، فقد يكون المرء مجردا من صلاح الدين والخلق مقفر الوجدان من البصيرة الروحانية ثم لا يقوى على مواجهة الموت الأبدي والظلام السرمدي على يقين واصرار، ولا بد له في هذا الموقف من صرامة واقتحام يواجه بهما تلك المخافة التي لا مخافة مثلها في الحياة ولا بعد الحياة.

فهل طبيعة كالطبيعة النواسية تنبني على ذلك المعدن الصلد الجسور؟ وهل عنده من الشك ما ينغلب في أعماق طبعه على تعلات الأمل والرجاء؟

لو اجتمع شهود العلم ومنهم الاطباء النفسانيون على زعم كذلك الزعم لما اتهموا أحدا بزعمهم الذي تنقضه كل لحمة وسداة في نسج هذه النفس الرخيصة المهلهلة. ولكن الاطباء النفسانيين على الأقل لا يزعمون له تلك القوة الصماء، لأن طبيعته والقوة باشكالها وانواعها لا تتفقان

وأقرب من ذلك إلى المألوف اننا أمام نفس ضعفت عن غواية الظهور

وغواية الفجور ، ولم تخل قط من شاغل بالدين تتمسح به أو تتحرش به كما تقدم فى صدر هذا المقال ، وأعيتها عقيدة العزم والمناعة فاحتالت حيلتها كى تظفر بعقيدة تركن اليها ، فوجدتها فى نحلة من نحل عصرها ، نخالها هى النحلة الوحيدة التى تكلف النواسى الاطلاع على مراحمها ، أو على مايلائمه من تلك المراجع ، فطابت له وتقبلتها سريرته على الكره منها ، لانها لاتستطيع الخلو من عقيدة ولا تستطيع عقيدة العزم والمناعة .

تلك هى نحلة « المرجئة » كما توسم فيها طلاب الرخصة من قبيل أبى نواس ، وقد وسعوها ، بأهوائهم فوسعت لهم كل ماشتهوه .

نشأت فرقة المرجئة على اعتدال وحكمة فى ايام الخلفاء الراشدين ، واعتصم بها الذين كرهوا الخوض فى الخلاف بين اجلاء الصحابة بعد مقتل عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، فتركوا الأمر لله يحكم فيه يوم الدين وسموا بالمرجئة لانهم لم يتعجلوا الحكم على فريق من الفريقين ، وجاء هذا الرأى فى الشعر قول ثابت بن كعب الملقب بقطنة :

ياهند انى اظن العيش قد نفدا ... ولا أرى الأمر الا مدبراً نكدا
انى رهينة يوم لست سابقه ... لا يكن يومنا هذا فقد افدا
ياهند فاستمعى لى ان سيرتنا ... ان نعبد الله لم نشرك به أحداً
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا

المسلمون على الاسلام كلهم ... والمشركون استووا فى دينهم قددا
ولا أرى أن ذنبا بالغا أحدا ... فى الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا
لا نسفك الدم الا أن يراد بنا ... سفك الدماء طريقا واحدا جددا
من يتق الله فى الدنيا فإن له ... أجر الحساب اذا وفى الحساب غدا

وماقضى الله من أمر فليس له رد وما يقض من شيء يكن رشدا
كل الخوارج مخطٍ فى مقالته ولو تعبّد فيما قال واجتهدا
اما علىّ وعثمان فانهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا شق العصا وبعين الله ماشهدا
يجزى عليا وعثمانا بسعيهما ولست أدرى بحق اية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به وكل عبد سيلقى الله منفردا

وكان ثابت بن كعب صاحب هذه القصيدة ـ وهو شاعر مجاهد ـ يعتدل على الجادة المثلى بين الطرفين : طرف الخوارج الذين يتهجمون على التكفير جزافا وطرف الطوائف المتنازعة التى كانت تخبط فى التهم ذات اليمين وذات الشمال ، فلا تكفير لأحد آمن بالوحدانية والوحى المنزل ولا جدوى من الخبط بالتهم بين عثمان وعلى أو بين فرقة وفرقة من الصحابة ، وأمرهم جميعا موكول الى حساب الله .

أما عصر ابى نواس فقد تباعدت فيه الفجوة بين الطرفين إلى أقصى مداها ، فجزم الخوارج بتكفير كل من عداهم وحملوا السلاح لقتاله واعتبروا كل من خالف الدين فى معصية ارتكبها كافرا مخلدا فى العذاب ، وتعددت فرق المرجئة فنجم منهم من كاد يسقط الأوامر والنواهى ويقول ان الايمان عقيدة فى القلب لاشأن لها بأعمال الجوارح ، فكل من اعتقد الوحدانية والوحى المنزل فله جزاء المؤمنين يوم الحساب .

ونقتبس هنا بعض ما كتبه الشهرستانى عن هذه الفرق فى كتابه الفصل فى الملل والنحل حيث قال فى الجزء الرابع :

« .. غلاة المرجئة طائفتان : إحداهما الطائفة القائلة بأن الايمان قول

باللسان وان اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن عند الله عز وجل من أهل الجنة وهذا قول محمد بن كرام السجستاني واصحابه وهو بخراسان وبيت المقدس. والثانية الطائفة القائلة ان الايمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه. فهو مؤمن كامل الايمان عند الله عز وجل .. وهذا قول ابى محرز جهم بن صفوان السمرقندي مولى بنى راسب كاتب الحارث بن سريج التميمى ايام قيامه على نصر بن سيار بخراسان، وقول ابى الحسن على بن اسماعيل بن أبى اليسر الأشعرى البصرى وأصحابهما .. وقالت طائفة الكرامية المنافقون مؤمنون مشركون من أهل النار، وقالت طائفة منهم أيضا من آمن بالله وكفر بالنبى صلى الله عليه وسلم فهو مؤمن كافر معا ليس مؤمنا على الاطلاق ولا كافرا على الاطلاق؛ وقال مقاتل بن سليمان – وكان من كبار المرجئة لا يضر مع الايمان سيئة جلت أو قلت أصلا، ولا ينفع مع الشرك حسنة أصلا. »

الى آخر هذه الاضاليل التى لا طائل تحتها، فلا جرم يلتقف ابو نواس رأيا كهذا ويتهافت عليه ليجمع بين لهوه واعتقاده الايمان، وطفق ينادى بانكار الشرك ولا يبالى ماعداه فقال:

ترى عنـــدنا مايسخط الله كله   من العمل المردى الفتى ماخلا الشركا

وقال

ترى عندنا مايكره الله كله   سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر

ثم تشبث بأن الكبائر لا تسلك صاحبها مع الكفار ولا تحرمه الرجاء فى عفو الله؛ فكان من أقواله الكثيرة فى ذلك:

وثقت بعفو الله عن كل مسلم   فلست عن الصهباء ماعشت مقصرا

ومنها: غاد المدام وان كانت محرمة   فللكبائر عنـــد الله غفران

ومنها: تكثر ما استطعت من الخطايا   فانك بالغ ربا غفورا
تعض ندامة كفيك مما   تركت مخافة النار السرورا
ومنها: خوفني الله ربكما   وكخيفتيه رجاؤه عندي
ومنها: يا كبير الذنب عفو الله   من ذنبك أكبر
لم ـ وعفو الله مبسوط ول   عدا عند الصراط
خلق الغفران إلا   لامرىء في الناس خاط

ويبدو أن أقوال المرجئة هي أكثر المراجع التي تتبعها من أولها، فإن المرجئة في زمانه لم يصطنعوا الصمت والعزلة في معترك الفتن، وإنما كان هذا ديدن الصالحين من الصحابة أيام الشقاق بعد عهد عثمان بن عفان رضي الله عنهم، وأكثرهم في ذلك الوقت أخذوا بالحديث الذي رواه أبو بكر عن النبي عليه السلام وفيه انه «ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، الا فاذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كان له أرض فليلحق بأرضه ... فقال رجل: يارسول الله! من لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاة».

فالى هذا المسلك من مسالك المرجئة الأولين ثاب أبو نواس في أخريات أيامه حين اضطرمت نيران الفتن بين طلاب الخلافة، فقال:

خل جنبيك لرام   وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير   لك من داء الكلام
ربما استفتحت بالمز   ح مغاليق الحمام
رب لفظ ساق آجا   ل نيام وقيام

إنما السالم من ألجـ ... م فاه بلجام
فالبس الناس على الصحـ ... ـة منهم والسقام
وعليك القصد إن الـ ... ـقصد أبقى للجمام
شبت يا هذا وما تتر ... ك أخلاق الغلام
والمنايا آكلات ... شاربات للأنام

وليس من المستبعد أن كلامه الذى حمل على الإنكار إنما كان شططاً فى الدعوة إلى الإرجاء ، كقوله فى الخلاف بين القدرية والجبرية :

يا ناظراً فى الدين ما الأمر ... لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى ... يذكر الا الموت والقبر

أو كقوله :

ما جاءنا أحد يخبر أنه ... فى جنة مذ مات أو فى نار

إلى آخر الأبيات ، إذ كيفما كان قوله فالمرجع فى «الاستعداد» للعقيدة إلى معدنه وطبيعته ، وليس من معدن هذه الطبيعة ان تقدم على ظلام المجهول منكرة ثابتة الجأش على الإنكار ، وليس من معدنها كذلك أن تغلب الغواية ناعة العزم والتوبة بين وهن الطبيعة وقوة الإغراء . وما كان من دأبه أن يخفى هذه النقيصة فيه لأن اخفاءها يسومه الكبت وهو لا يقوى عليه ، وقد صدق وصف نفسه إذ قال :

ما أبعد النسك من قلب تقسمه ... قطربل فقرى بنّى فكلواذى

أو كما قال بعناد كعناد الأطفال :

فلا والله لا والله لا والله لا أقصر

ومن قبيله قوله :

غررت بتوبتى ولججت فيها فشق اليوم توبك ، لا أتوب

وهو يردد هذا الاعتراف على طريقته المطرده فى جميع أحواله ، وهى « اتخاذ الفضيلة من الضرورة ، كما يقول الغربيون فى أمثالهم ، فاذا اعترف بنقيصته لاح من اعترافه بها كأنها مفخرة يباهى بها المحرومين منها ، وتلك خديعة الطبع الضعيف .

أما أشعاره فى النسك والتوبة فلم يكن جاداً فيها طول حياته إلى ما قبل وفاته ، فمنها ما كان يصطنعه خوفا من الأمين حيث يصرح قائلا :

أطع الخليفة واعص ذا عزف وتنح عن طرب وعن قصف

أوقائلا ولئن وعدتك تركها عدة إنى عليك لخائف خلفى

أوقائلا ولهو لتأنيب الأمير تركته وفيه للاه منظر وسماع

وقد يغلو متهكما فى وصف تقواه كما قال يخاطب الفضل بن الربيع .

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسـ ـك وعودتنيه والخير عادة

فارعوى باطلى واقصر حبلى وتبدلت عفة وزهادة

لو ترانى ذكرتك الحسن البصر ى فى حسن سمته أو قتاده

المسابيح فى ذراعىّ والمصحـ ـف فى لبتى مكان القلادة

وإذا شئت أن ترى طرفة تعجـ ـب منها مليحة مستفادة

فادع بى لا عدمت تقويم مثلى وتفطن لموضع السجادة

تر أثراً من الصلاة بوجهى توقن النفس أنها من عبادة

لو رآها بعض المرائين يوما لاشتراها بعدها للشهادة

ولقد طالما شقيت ولكن أدركتنى على يديك السعادة

على أنه كان يعلم أنه « زهد سياسي » لجأ إليه الخليفة دفعاً لسوء السمعة التي لصقت به من مصاحبته ، وقد يجهر بذلك فيصيح كالنافر المغضب

أأمنهما والله لم يغنم اسمها وهذا أمير المؤمنين صدقها

هذا أو يكون النظم في النسك باباً من أبواب « المرض » وصدق التمثيل ، ليقال أنه قال في النسك وهو ماجن مالم يحذقه النساك ... وروى محمد ابن صالح بن بيهس الكلابي أن أديباً من بغداد أسمعه على سبيل التفويه بشاعرية أبي نواس أبياتاً في الزهد « ليس هو من طريقته .. وهذه هي الأبيات :

أخي ما بال قلبك ليس ينقى كأنك لا تظن الموت حقاً

ألا يا ابن الذين فنوا وبادوا أما والله ماذهبوا لتبقى

وما للنفس عندك من مقام إذا ما استكملت أجلا ورزقا

وما أحد بزاد منك أحظى ولا أحد بذنبك منك أشقى

ولا لك غير تقوى الله زاد إذا جعلت إلى اللهوات ترقى

وكان أبو العتاهية يقول : سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أني سبقته إليها بكل ما نظمته . فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

وقوله : من لم يكن لله متهماً لم يمس محتاجاً إلى أحد

وقوله : إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

قال : وقد نظمت في الزهد ستة عشر ألف بيت ووددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات ، والبيت الأخير من قصيدة أولها :

ألا رب وجه في التراب عتيق ويا رب حسن في التراب رقيق

ويا رب حزم في التراب ونجدة ويا رب رأى في التراب وثيق

فقل لقريب الدار إنك راحل   إلى منزل نائى المحل سحيق

وحدث من شاهد أبا نواس لما حج مع جنان ، وقد أحرم أنه لما جنه الليل جعل يلبى بشعره ويحدو بطرب — فى صوته حتى اجتمع به كل من سمعه ، وجعل يقول

إلهنا ما أعـــدلك   مليك كل من ملك

لبيك قد لبيت لك   لبيك أن الحمد لك

والملك لا شريك لك   ما خاب عبـــد سألك

إلى آخر هذه التلبية ، وقد أفسدها بما رواه عن نفسه فى نظمه إذ يقول

وعاشقان التف خداهما   عند التئام الحجر الأسود

فاشتفيا من غير أن يأثمـــا   كأنما كانا على موعـــد

لولا دفاع الناس إياهما   لمــا استفاقا آخر المسند

ظللنا كلانا ساتر وجهه   مما يلى جانبه باليد

نفعل فى المسجد ما لم يكن   يفعله الأبرار فى المسجد

ونكاد نجزم بأنه كذب على نفسه ليستخرج من هذا الموقف ملحة يتخيلها ولا نراها تحدث فى مزدحم الطواف ، وشبيه بذلك ما تحاكى به من شربه فى ليلة العيد ، كأنما خاف على ما كان يسميه « جاهه » عند المجان ولا جاه له يخاف عليه بين أهل الصلاح .

وما لم يكن من شعر التوبة إطاعة لأمر أو إدلالا بقدرة فنية ، فلعله خاطرة من خاطرات الندم تطيف بقلبه ساعة ثم تمحوها داعية من دواعى اللهو فينساها .

ويسرى هذا على شعره كله فى التوبة والعظة ما خلا نتفا يسيرة من نظمه

فى أخريات عمره قد تستشف منها خاطرة الأسف الصادق والحزن الخاشع ـ ولم تأت هذه التوبة إلا بعد مطاولة ومراوغة يستبقى بهما بقية الشباب .

كان الشباب مطية الجهل ومحسن الضحكات والهزل

كان الجمال إذا ارتديت به ومشيت أخطر صيت النعل

كان المشفع فى مآربه عند الفتاة ومدرك التبل (١)

والباعثى والناس قد رقدوا حتى أبيت خليفة البعل

والآمرى حتى إذا عزمت نفسى أعان يدى بالفعل

والآن صرت إلى مقاربة وحططت عن ظهر الصبا رحلى

والراح أهواها وإن رزأت بلغ المعاش وقللت فضلى

وبعد يأس ما قال معترفا بتأخير التوبة بعد فوات حينها أو أحيانها .

دب فىّ الفناء سفلا وعلواً وأرانى أموت عضوا فعضوا

ذهبت شرتى وجدة نفسى وتذكرت طاعة الله نضوا

ليس من ساعة مضت بى إلا نقصتنى بمرهالى جزوا

لهف نفسى على ليال وأيا م سلكتهن لعبا ولهوا

قد أسأنا كل الإساءة ـ يارب ـ فصفحاً عنا إلهى وعفوا

ثم جعل يودع دنياه بأمثال هذين البيتين :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

مالى اليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم أنى مسلم

وأبلغ منها قوله

أرانى مع الأحياء حياً وأكثرى على الدهر ميت قد تخرمه الدهر

فما لم يمت منى بما مات ناهض فبعضى لبعض دون قبر البلى قبر

---

(١) الثأر

أن تبادلنى سلعة بسلعة أغلى منها كثيراً ، وتخرج رابحاً من الصفقة .. » ومضى الفيلسوف يعلم الفتى مالا يعلمه من هداية جمال النفوس حين تواجه جمال الأجسام

وفى الأدب العربى أمثلة كثيرة لهذا الانحراف الذى اعتدل به التسامى غاية الاعتدال ، فالشاعر تقى الدين السروجى قد كان ولا ريب على انحراف فى التكوين وقال الشهابى محمود أنه كان مع دينه وورعه وزهده مغرما بالجمال وكان يكره مكاناً فيه امرأة . . ولما توفى حلف أبو محبوبه ألا يدفنه إلا فى قبر ابنه وقال : كان الشيخ يهواه بالحياة وما أفرق بينهما بالممات ، وهذا لما كان يعلمه من دينه وعفته

وكان الشيخ مدرك الشيبانى صاحب « عمرو النصرانى » على هذا الخلق وهو صاحب القصيدة التى أولها

من عاشق ناء هواه وإن ناطق دمع سامت اللسان
موثق قلب مطلق الجثمان معذب بالصد والهجران

* * *

من غير ذنب كسبت يداه لكن هوى غمت به غيناه
شوقا إلى رؤية من أشقاه كأنما عافاه من أبلاه

ومنها يستحلف بالمقدسات المسيحية :

يا عمرو بالحق مع اللاهوت والروح روح القدس والناسوت
ذاك الذى فى مهده المنعوت موّض بالنطق عن السكوت

* * *

بحق ما فى محكم الإنجيل من منزل التحريم والتحليل
وخبر ذى نبأ جليل يرويه جيل قد مضى من جيل

إلى آخر القصيدة التى كان أبناء جيله من المسلمين والمسيحيين يتناشدونها ويتبركون بناظمها ولا تطوف بنفوسهم طائفة من الشك فيه وفى معشوقه

وقبل هؤلاء ذاع فى البصرة هوى الشيخ محمد بن داود الظاهرى لصاحبه محمد الصيدلانى وكلاهما مثل فى العفة والأدب . وكان ابن داوود هذا يتحرج فى الدين حتى يحرم القياس ولا يقبل غير النص، فلما نظم هذين البيتين فى محبوبه

ما لهم أنكروا سوادا بخد   يه ولا ينكرون ورد الغصون

إن يكن عيب خده بدد الشـ   ـعر فعيب العيون شعر الجفون

قيل له أنكرت القياس فى الفقه وأثبته فى الشعر فقال هى غلبة الحب

ومثل هذا التسامى يخلق من النقص فضلا ومن الزيغ اعتدالا ويعلم النفوس من الرياضات ما ينفعها فى تصفية الأخلاق وتزكية الضمير، وليس أحد من ذوى العلل الكمينة أو العارضة بعاجز عنه إذا استجمع له نيته وعقد عليه عزيمته ، ولكن هذه المحاولة أعجزت أبا النواس لأنه وقع من مولده فى بيئة تعالج التسامى على أسلوب آخر ، وهو اتخاذ الفضيلة من الضرورة وطلب الوجاهة من وراء الشهرة المخالفة أو تحدى الرياء بالاجتراء عليه ، وهذا بديل من التسامى فى الواقع يجنح اليه من طبع عليه ولم تسعده البيئة بمن يروض طبعه على أسلوب سواه .

خاتمة

والكلام على عقيدة أبي نواس تنتهي هذه الرسالة ، وهي كما يرى القارىء من عنوانها ومحور بحثها مقصورة على الدراسة النفسية لا ترمي لى ترجمته أو نقد أدبه وشعره ولا تمس وقائع الترجمة أو شواهد الأدب والشعر إلا لما فيها من الأبانة عن طبيعته والاعانة على تفسيرها واستطلاع كوامنها

ومن الحيران تقال كلمة الخير فى كل ترجمة

وهى لا تكون خيرا إلا أن تكون صدقا

وكلمة الخير التى تقال صدقا فى الشاعر ان الآفة عنده انما هى آفة الضعف والشعور المغلوب وليست آفة الشر والأذى . فلم يعرف عنه انه سعى إلى ايقاع الأذى بأحد أو انه سر بوقوعه فيه ، وعرف عنه على خلاف ذلك انه كان يسعى إلى المساعدة والمؤاساة ما اقتدر عليها ، فلما اشفق جماعة الشعراء الحاملين من الوفود على الخصيب بمصر وابو نواس وافد عليه - طيب خواطرهم واستعطف الخصيب عليهم ، ولم يطلب جائزته إلا بعد الاطمئنان على جوائزهم ، ولما غضب الرشيد على الشاعر ابن مناذر وامر بلطمه واقصائه وأقسم ليحرمنه جوائز الصلات فى حياته قصد اليه ابو نواس وترك بين يديه بدرة من المال لعله لم يكن يملك غيرها فى تلك الآونة .

ولئن كان حبه مشوبا بشهواته لقد كان لمحاسن الدنيا حب مطبوع فى وجدانه وذوقه ، وكان له فى تلك المحاسن وصف يكسو الحياة زينة ويصقل ما اخشوشن من شدائدها واكدارها على نفوس الاحياء .

وبعد فهل زادت عيوب أبي نواس مقدار الرذيلة فى الدنيا؟؟ . ان المقدار ليختلف عند امم المقدرين ، ولكنهم لا يختلفون فيما زاده من ثروة النفس والبيان

عباس محمود العقاد

الفهرس

صفحة	
٣	أبو نواس
٢٩	النرجسية
٦٢	الجنس والنفس
٨٧	الحسن بن هانى
١٢٠	الشيطان
١٣٦	الخمر
١٥٢	الفن
١٦٣	الحب والغزل
١٧٥	العقيدة

PJ
7701.6
N8
Z572
c.1